العلم والدين

مناهج ومفاهيم

الدكتور أحمد عروة

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم والدين

مناهج ومفاهيم

الكتاب ٧٥٦
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص. ب (٩٦٢) - برقياً : فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

تمهيد

لماذا نطرح قضية العلاقة بين الدين والعلم حينما نعتقد أن الإسلام وما يحمله من عقيدة وثقافة وحضارة يعتبر العلم أساساً وتكملة ملزمة للإيمان ؟

ذلك لأننا نعيش في عصر طغت عليه الفلسفات والأفكار التي تنكر تلك الروابط سواء على مستوى الفكر المجرد أو على مستوى العمل والتطبيق .

أما السبب في اتساع الفجوة بين الفكر الديني والفكر العلمي فيرجع أساساً إلى التطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية والتكنولوجية ، وإلى تأثيرات ذلك التطور على فكر الإنسان وسلوكه ونظرته إلى الوجود . إلا أن هذه الفجوة نفسها جعلت الإنسان ينسلخ من فطرته الدينية ، ويشعر بغرابة وجوده في هذا الكون ، ويتساءل عن معنى ذلك الوجود ، وعن أسبابه ومعانيه وأهدافه .

هنالك معتقدات قديمة تعرض نفسها من جديد على ميزان العقل المتفرغ لها ، بينما تدعي نظريات حديثة أنها جاءت بالحقيقة العلمية النهائية ، وأخطرها تلك النظرية التي تستشهد بالعلم والمنهج العلمي لتكذيب الحقيقة الدينية . ومما أعانها على ذلك أن التقدم العلمي

والتكنلوجي الذي توصلت إليه الحضارة المعاصرة لا يقابله في الفكر الديني إلا تقليد واقتناع أبله ، مما جعل الدين يفتقد نفوذه ومكانته في حياة الإنسان .

وأدت هذه الظاهرة عند كثير من الغربيين والمستغربين إلى الاعتقاد بأن التطور الحضاري والتقدم العلمي يؤديان حتمياً إلى اضمحلال العامل الديني وتغلب العامل المادي عليه . ومن تلك الملاحظة القصيرة الأبعاد بنيت جدلية واهية الأركان تدعي بأن العلم والإيمان شيئان متناقضان ، وأن الاكتشافات العلمية الحديثة لم تترك للمعتقدات الدينية ملجأ تأوي إليه إلا في مغارات الجهل وأساطير الأولين .

إن هذا الإصرار الذي نجده في الفكر المادي الحديث لعزل علوم الطبيعة عما وراء الطبيعة وفصل العقل عن الإيمان ناتج عن إنكار الحقائق التي تحملها الرسالات النبوية ، وعن الاختلاط المنهجي بين عنصرين من المعرفة متميزين ومتكاملين يخضع أحدهما للعقل والآخر للوحي وكلاهما لخالق الكون ومدبره .

من الحقيقة أن قضية العلاقة بين علوم الطبيعة وعلوم الدين لا تطرح اليوم مثل ما كانت عليه في الماضي لأن تطور العلوم الطبيعية والنتائج النظرية والعملية التي توصلت إليها في معرفة قوانين الكون واستخدامها لا تتفق مع كثير من النظريات والتأويلات القديمة ، ولكن من الحقيقة أيضاً أن هذا التطور لا يمس جوهر العقيدة وأصول تعاليمها ، وإنما يمس اجتهادات الإنسان في تفسيرها وتأويلها لتلك التعاليم ، وذلك يجبر الفكر الاجتهادي على تغيير أساليبه المنهجية طبقاً للمعطيات العلمية الجديدة .

إن الضعف الذي نشاهده في ظاهرة الدين كواقع بشري تاريخي يرجع إلى عوامل حضارية سلبية يجب معرفتها وتوضيحها حتى يتبين

الثابت منها والمنحرف عنها . تتلخص تلك العوامل فيما يلي :

1 ـ إن التقدم الهائل الذي حققته الحضارة الغربية المعاصرة في ميداني العلوم والتكنلوجيا أثَّر على الفكر الإنساني في نظرته إلى الدين بحيث أن مفهوم الإيمان والعبادات والأخلاق فقد من دعائمه الحضارية التقليدية فتقلص نفوذه في الأفراد والمجتمعات .

2 ـ إن الفكر المادي المهيمن على الحضارة الحديثة جعل الانشغال اليومي لضمان المعاش والأمن والضرورات الحياتية والكماليات الترفيهية والمكانة الاجتماعية يملأ عقول الناس ، ويبعدهم عن التفكير الديني والتريض الروحي والتعبد .

3 ـ إن التطور السريع والعميق للعلوم الطبيعية والإنسانية ولا سيما في ميادين الفيزياء والفلك والبيولوجيا والاقتصاد والاجتماع فرض على الفكر الإنساني مقاييس منهجية واستدلالية جديدة كذَّبت أو تجاوزت أكثر المعطيات العلمية والمُسَلَّمَات الكلامية التي كانت العلوم الدينية تعتمد عليها في العصور الأولى ، كما كانت السلوكات الأخلاقية والنظم الاجتماعية تسير حذوها وطبقاً لتعاليمها .

4 ـ إن الدين كنظام عقائدي وبنية اجتماعية ومنهج فكري لم يتحكم في التغيرات التاريخية التي حصلت في الاقتصاد والعلوم والسياسة . أما الكنيسة المسيحية فإنها منذ عهد النهضة فقدت سلطانها على المجتمع الغربي ورغم محاولاتها للتكيف مع التطورات الحضارية لم تتمكن من مسايرة الفكر الغربي الحديث . وأما الإسلام بصفة خاصة فرغم أنه كان منذ البداية جامعاً وموحداً بين الرسالة الروحية والنظام الاجتماعي قد تأثر بالظروف الزمنية سواء في العصور الحضارية الخصبة أو في عصور الانحطاط العقيمة مما جعل الفكر الديني تارة يتفتح للبحث العلمي وتارة يتقاعس ويتجمد .

5 ـ إن الفلسفة المادية التي طغت على الحضارة المعاصرة سواء في أصولها النظرية أو في تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية تغلبت على الضمير الديني واستعملت لذلك الغرض سلاحين حادين : سلاح المنهج العقلاني وسلاح الأخلاق الاجتماعية .

أما في المجال العقائدي فإنها حاربت الدين باعتباره ظاهرة بشرية خارجة عن نطاق الاستدلال العقلاني نشأت عن تخيل الإنسان القاصر المستضعف لتعبر عن تخوفاته وآماله وفي ذلك يقول (إنغلس Engels) : « إن أي عقيدة دينية ليست سوى انعكاسة خرافية في ذهن الإنسان للقوات الخارجية التي تسيطر على حياته اليومية ، وفي ذلك الانعكاس تكتسي القوات الأرضية شبح قوات لاهوتية » .

وأما في المجال الأخلاقي الاجتماعي فإنها تحكم على الدين بأنه إيديولجية الرجعية التي تخدم مصالح الطبقات الثرية ، ويقول لينين في ذلك « في حكم الماركسية أن كل الديانات والكنائس الحالية والمنظمات الكنيسية من أي نوع كانت ليست سوى آلة بيد الرجعية البورجوازية التي تعمل باستمرار من أجل استغلال الطبقة العاملة وتجهيلها » .

وفي كل هذا يقول الفيلسوف الروسي (أفاناسياف Afanassiev) باسم الماركسية « إن الدور الرجعي للدين يتمثل في كونه شديد العداوة للعلم وللنظرية العلمية للكون » .

6 ـ ومن أسباب ذلك التحول الفكري عن الأصول الدينية منهجية التعليم التي سادت في العالم بما في ذلك البلدان الإسلامية والتي ترتكز أساساً على الاستدلال العقلاني ، والتي أدت عند نخبة مثقفة واسعة إلى استحقار التراث الديني والثقافي ، وإلى استكبار الحضارة الغربية لما أنجزته من تقدم علمي وتكنلوجي واقتصادي واجتماعي .

كل هذه العوامل الفكرية والحضارية أدت عند كثير من الناس إلى

التشكك في حقيقة الدين كمفهوم للوجود ، وفي فائدته كمُسَيِّرٍ للحياة ، بل أدت الى الاعتقاد بأن الدين هو العائق الذي يمنع الإنسان من التحرر والازدهار ، وأن الإنسان بتجرده من المعتقدات الدينية سيسترجع قيمته السامية التي سلبت منه بمجرد إيمانه بوجود رب مسيطر عليه ومستحوذ على الفضائل كلها .

بينما يعلم كل من اطلع على تعاليم الدين أن الدين بالعكس من ذلك ، هو الذي يحرر الإنسان من الأغلال التي تشل ضميره وعقله وسلوكه ، وأن الدين هو الذي يعطي للإنسان أبعاداً فكرية وأخلاقية وروحية تسمو به إلى الفضيلة العليا كما تعبر عنه الآية ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعونَ الرَّسولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْروفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الأعراف 157/7] .

إلا أن الواقع التاريخي يُعَلِّمُنَا كذلك أن أحوال كثير من الأمم التي تنتمي للدين كانت متناقضة مع تلك المبادىء والتعاليم الفاضلة سواء في العالم الغربي الذي تورطت فيه الكنيسة في الصراعات الطبقية والفكرية ولم تلعب فيها دورها المنتظر أو في العالم الإسلامي خلال كثير من مراحله التاريخية حيث تغلبت المصالح والمطامح الخاصة على تعاليم الدين ومقاييسه الأخلاقية مثل ما تغلب الجماد الفكري على دعوة الدين للعلم والمعرفة .

ولكنما يسهل علينا دحض الادعاءات المادية فيما يخص الإسلام عقيدة وأخلاقاً ونظاماً اجتماعياً ، وحتى في العهود الاستعمارية الأخيرة ما فتىء الإسلام يبرهن على طاقاته الفاتحة والمستفتحة والمحررة للإنسان .

قـد تعتقد فئة هامشية من المثقفين المستغربين من الـذين ابتعدوا عن روح الإسلام وتعاليمه وتشبعت أفكارهم بالفلسفات المادية الإلحادية أن التحرر من الدين هو مفتاح السعادة والتقدم والعدالة .

وقد تنخرط تلك الفئة في التيارات الفكرية والسياسية السـائدة في الغرب أو الموالية لها ، وتتبنى كـل ما تحمله الحضـارة الماديـة من قيم علمية حقيقية ، ومن غثاء شبه حضاري ، يفسد الإنسان في ضميره وفي أخلاقه وفي صحته النفسية وحتى الجسمية .

إن الفصل بين تعاليم الدين وعلوم الدنيا ظاهرة تتميز بها الحضارة الغربية منذ عصر النهضة حيث تصادمت الاكتشافات العلمية لا سيمـا في تركيب جسم الإنسان وفي حركات الفلك مع النصوص القديمة التي كان أربـاب الكنيسة يعتمـدون عليها ولا يـريدون التخلي عنهـا إلى أن طغى الفكر العلماني على الفكر الديني واستلم مقاليد الحضارة والسياسة .

كثير من المثقفين المستغربين ساروا مع ذلك الاتجاه وتبنوا المنهج العلماني فجعلوا العلم في وادٍ والإيمان في وادٍ آخر متجاهلين بذلك أن الدين الإسلامي في أصوله العقيدية وفي واقعه الحضاري لا يفصـل بين العلم والإيمان كما لا ينفصل ماء النهر عن السهل الذي يجري فيه .

إن الإسلام منذ دعوته الأولى يمثل عقيدة وجودية ومآلية شـاملة لا تفصـل بين الواقـع الـزمني والتـطلع الـروحي ، ولا بين مـطامـح الفـرد ومصلحة المجتمع ، ولا بين قوانين الطبيعة والمفهوم الديني للكون ، ولا بين العلم بـالمحسوسـات والإيمان بـالغيبيات ، ولا بين العبـادة والعمل اليومي .

ولكن الوسائل العلمية والتقنية الحديثة الهائلة وما يقابلها من عجز عنـد رجال الـدين التقليديين في تعـرضهم أو عدم تعـرضهم للمشـاكـل الفكرية والعملية التي تطرح على رجل العصر أوقعت في النفوس وسوسة

تـوهمهم بحقيقة المحسـوسات والمشهـودات دون الحقيقة الغيبيـة التي ترشد إليها تعاليم الدين في مجال البدايات والنهايات التي لا يصل إليها علم ولا جدل .

هذا ما دعانا إلى طرح قضية العلم في علاقته مع الدين في أبعادها الإسلامية وآفاقها الجديدة ، ولا يعني ذلك أننا نطمح إلى إيجاد الحلول النهائية ، وإنما نحاول إبـراز مكانـة العلم في أبعاده الـواسعة المتكـاملة بالنسبة إلى الإسلام في أصوله العقيدية وفي تطلعـاته الحضـارية وإزالـة الضباب المتراكم الذي يغشى طريقه والذي يتسبب في تشـويش الأفكار وتهييج الفتن العقائدية .

لقد آن للعالم الإسلامي أن يستيقظ لواقعه ، وأن يتنبه لمصيره كأمة ذات مسؤولية عالمية ورسالة إنسانية ، وأن يرجع إلى قضية الـدين كأمـر إلهي وواقـع إنساني حضـاري لا ينفصل في مكـوناتـه الدينيـة والثقافيـة والأخلاقية والاقتصادية .

وفي الظروف التي يعيشها العالـم الإسلامي في تصديه للتحـديات المختلفـة التي تعاكس مسيـرته من داخله ومن خـارجـه ، تكتسي هـذه القضية طابعاً اجتهادياً تجديدياً إذا لم نقل ثورياً، ليس في إمكان العقيدة وحدها ولا العلم وحده ، أن يلعبا فيه دوراً منعزلاً لتحرير الإنسان مادياً وأخلاقياً وثقافياً وروحياً .

هنالك منهجان يمكن اتباعهما لتوضيح العلاقة النظرية والعملية بين العلم والدين :

المنهج الأول : هو منهج تاريخي يعتمد على المؤلفات والأحداث والآثـار المؤرخـة التي تُـظهِـر مكـاسب الحضـارة الإسـلاميـة النـظريـة والتطبيقية ، والتي تشهد على أن الإسلام في تعاليمه واتجاهاته الأساسية

أعطى للعلم مكانة متينة ، ومفهوماً شاملاً ، وجعل منه واقعاً حضارياً في كل الميادين الدينية والطبيعية والإنسانية .

المنهج الثاني : وهو الذي اعتمدنا عليه أساساً يتناول الموضوع من الناحية العقائدية ليبين الروابط المتبادلة بين الدين والعلم انطلاقاً من الأصول ، وهي القرآن والسنة النبوية ومروراً على ما فهمه وطبقه المسلمون في عصورهم الحضارية وانتهاءً بتصور جديد لتلك الروابط على ضوء المكتسبات العلمية والمنهجية الحديثة .

ونظراً إلى أن أغلبية ما كتب في الموضوع ينتمي إلى المنهج الأول ويلعب دور الشاهد التاريخي أكثر مما يقوم بالدور المحرك للنهضة الفكرية والعلمية ، فإننا سنتعرض أساساً للتحليلات العقيدية والفلسفية والمنهجية لإبراز الوحدة المبدئية التي تجمع في الإسلام بين الإيمان والعلم ، والتي تنطلق من وحدة الفكر الديني الذي لا يفصل في تقديره للوجود الكوني والبشري بين الشهادة والغيب ، ولا بين الظواهر والغايات ، ولا بين المادة والروح ، ولا بين الحقائق العلمية وحقيقة الدين .

***

الفصل الأول

العلم والفلسفات المادية المعاصرة

1 ـ الفلسفة المادية

تدعي الفلسفة المادية المعاصرة بأنها تفسر وجود الكون وحركاته وتطوراته بدون اللجوء إلى فكرة وجود خالق مدبر حكيم وتدعي أنها وحدها مبنية على المنهج العلمي والمفهوم العلمي لوجود الكون ذلك المنهج الذي يتناقض مع إرادة أو قدرة خارجة عن هذا الكون . وتدعي أخيراً أنها كلما اكتشفت قانوناً أو نظاماً تسير عليه الكائنات فإن ذلك الاكتشاف يقع على حساب المفاهيم والعقائد الدينية سواء كفكرة أو كعامل تاريخي أو كطريقة أخلاقية وسلوكية .

الحقيقة هي أن المادية الجدلية التي ينتسب إليها الماركسيون وأتباعهم تجاهلت في الوقت نفسه حدود الجدلية وحقائق الدين ، وأنها انطلقت من مُسَلَّمَةٍ عقائدية ليس لها أساس علمي ترفض للدين وظيفته الفكرية والوجودية والأخلاقية . ولكنها بانغلاقها داخل الفلسفة المادية التي تنكر وجود الله أنشأت ديناً (سلبياً) يعطي للمادة صفات الألوهية ظاهره الإلحاد ؛ لأنه يكفر بالله وباطنُه الشرك لأنه يعطي للمادة خصائص الربوبية وهي الأزلية وخلق الحياة بما في ذلك خلق الإنسان .

إن الاختلاف الحقيقي بين المفهوم المادي والمفهوم الديني لا يكمن في القيم الأخلاقية ولا في الدعوة إلى إصلاح المجتمع البشري ؛ لأن ميدان الأخلاق تابع لأهداف وظيفية ومصيرية خارجة عن العلمية

المجردة . ولكن الاختلاف الجوهري هو في التأويل الفلسفي لوجود العالم ولمكانة الإنسان في هذا العالم. وهذا الاختلاف ليس للجدلية ولا للعقلانية أن تحكما له أو عليه حتى ولو تسلحا بالمناهج التحليلية والتجريبية والاستقرائية كما حدث بين جدليتي (هيجل وماركس) لأن كلاهما كانت له نظرة مسبقة لمفهوم الوجود وغاياته .

مهما كان الأمر في الصراع بين جدلية هيجل وجدلية ماركس ـ وحتى إذا اعتبرنا أن جدلية ماركس أدحضت جدلية هيجل ، وهذا ليس من المسلم فيه عند الكثيرين ـ فإن هذا الصراع يطرح مشكلة العقل الإنساني في محاولته لاستكشاف الحقائق الأولى . وإذا انتهى الصراع في ذهن الفلاسفة الماديين (بموت الله La mort de Dieu) فهذا يعني موت فكرة تَصَوُّرِيَةٍ إنسانية ليس لها علاقة مع حقيقة الله المطلقة التي لا تدركها عقول الناس .

أما فكرة (الاستلاب Allenation) التي تتعرض لها الجدلية المادية فمعناها أن الإنسان حينما يعتقد وجود إله يهيمن على حياته وفكره ومصيره فإنه قد ينتزع من نفسه فضائله الذاتية وينسبها إلى ذلك الخالق ، وهذه الفكرة واهية في أصلها ولا يقبلها المؤمن لأن الإيمان بالله هو الذي يعطي للإنسان سموه وفضيلته وكرامته وحتى معنى وجوده . وأما الإلحاد فبالعكس ورغم الاستكبار الذي يتبعه غالباً فإنه يجرد الإنسان من بعده المتسامي ويتركه وحيداً بائساً يائساً في زوبعة الوجود .

وأخيراً إذا اعتبرنا الناحية الخلقية فإذا وجدنا كنيسة أو نظاماً دينياً ما في عهد ما أو في بلد ما يتورط مع سلطات مستبدة ظالمة ، فإن هذا يدعو إلى محاكمة التصرفات البشرية المخالفة لمبادئها لا إلى محاكمة القيم الدينية التي تنتمي إليها . وإذا كان كما كتبه الأستاذ غارودي في حواره مع المسيحيين «من الغلو أن نقارن بين المسيحية في مثاليتها وبين الشيوعية

في واقعها (الماركسية في القرن العشـرين Marxisme du XXe Siècle) فـإنه كـذلـك ليس مـن العدالـة أن نقـأرن بين المـاركسيـة في مثـاليتهـا والمسيحية في واقعها ، ولا من المنطقية أن نحكم على الإسلام بما فعله أو لم يفعله المسلمون .

مهما كان الأمر فإننا إذا تفحصنا الفلسفة المادية نجدها سواء على مستـواها النـظري أو التطبيقي تـظهر كـدين سلبي يعطي للمـادة صفات الألوهيـة ويعطي للمسائل اللاهوتية تأويلات ماديـة كما نبينـه في الأمثلة التالية :

ـ في ميدان ما فوق الطبيعة ومع إنكارها لهذا النوع من التأملات لجأت الفلسفة المادية إلى إعطاء المادة الصفات التي تتميز بها الربـوبية نفسها وهي أن المادة أبدية أزلية ليس لها بداية ولا نهاية تملك في ذاتها جـدلية مستقلة عن أي إرادة أو حكمـة خارجيـة تدبـر حركـاتها ونـظامها وتطوراتها ، وهي التي نتجت عنها الكائنات في جميع أنواعها وأشكالها الطبيعية والحياتية وحتى العقلية والفكرية .

ـ في ميدان الظواهر الطبيعية تعتبر المادية أن نظام العالم وتطوراته بما في ذلك ظهور الحياة ونشوء الحيوانـات وبروز العقـل الإنساني هي نتيجة للتفاعلات الجدلية التي هي من طبيعة المادة في ذاتها والتي تخضع لقوانين الصدفة أو الحتمية .

ـ في ميدان المعرفـة تعتبر المـادية أن (المنهجيـة العلمية) هي وحدها كفيلة وكافية بأن تكتشف قوانين الكون وتطوراته ، كما أن قدرتها على اكتشاف أسرار الكون واستخدام طاقاته وقوانينه ليس لها حدود تفلت عن إرادة الإنسان وقدرته العلمية والإبداعية .

ـ على المستوى الأخلاقي تدعي المادية بأنها ترتكز على المنهجية العلميـة لتحديـد وتوجيـه وتشريـع السلوك الفردي والنـظام الاجتمـاعي

والدولي ، والأمر كما سنراه من بعد هو أن العلم لا يتصرف في الأخلاق ، وليس من شأنه أن يضع قوانينها ومقاييسها ، وإنما هو في الوقت نفسه خاضع لمقاييس الأخلاق ووسيلة تستخدمها الأخلاق ، وما الأخلاق التي تتغنى بها الفلسفات المادية من عدالة اجتماعية وتعاضد إلا تراث بَلَّغَتْهُ الديانات القديمة والأعراف الإنسانية . ومهما كان التلاعب بتلك القيم عبر التاريخ البشري فإن المبادىء الأخلاقية ثابتة في ضمير الإنسان، والماركسية وغيرها من العقائد المادية الحديثة ورثت من تلك المبادىء إلا أنها وضعت لها قواعد جدلية تنطلق من تناقض المصالح بين الطبقات والفئات الاجتماعية في تنافسها على الكسب والسلطة ، وتطالب بحق الطبقات العاملة في التملك لوسائل الإنتاج ، وفي السيطرة على زمام الحكم .

إن الفلسفة المادية العلمانية لا يمكن أن يكون لها موقف أخلاقي ذاتي ، ولكنها استعارت من القيم الدينية والإنسانية ، وكيف لها أن تحكم علمياً على الصفات النفسانية والأخلاقية من أخوة ومحبة وتراحم وتآثر وعدالة . وإذا كان لا بد لها أن تمتد إلى الأخلاق انطلاقاً من حتمية الترابط والتضامن وتحديد العلاقات المهنية والتعاملية بين البشر ، فلا يكون ذلك إلا في نطاق مجتمع علماني سواء في نموذجه الرأسمالي أو الاشتراكي تقتصر أبعاده على الميادين الاقتصادية والأمنية والثقافية ، وتقف دون الفضائل الروحية والأخلاقية التي تسمو على الدافع المعاشي والترفيهي .

هذا الانتقاد المبدئي لا يمنعنا من الاعتراف بأن الماركسية كأيديولوجية عملية في انطلاقها من تحليل الظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية أحدثت حركات ثورية وفكرية زعزعت أنظمة الإقطاع والرأسمالية والاستبداد الطبقي التي لم تستطع الكنيسة ولا القيم الإنسانية التقليدية أن تضمن فيها حقوق الإنسان في العدالة والسعادة . ولكن

الأيديولوجية المادية وتعارضها المبدئي مع الأبعاد الروحية عزلت الإنسان عن امتداداته الروحية والنفسية ، وهاجمت الدين والأخلاق كأيديولوجية سلبية عوضاً من مواجهة الانتهاكات التي اقترفتها النظم الاجتماعية للقيم والتعاليم الدينية مع تواطؤ السلطات الكنيسية أو رغم أنفها . وكما أنه ليس من العدل أن نحكم على الشيوعية بما اقترفه ممثلوها من انتهاكات لحقوق الإنسان وغلطات ومظالم وانحرافات ، كذلك ليس من العدل أن نحكم على الدين بالجهل والاستبداد والرجعية لأن بعض رجاله تحالفوا مع الطبقات المترفة والسلطات الظالمة .

بل قد تلتقي المفاهيم في كثير من الحقائق وتتفق في كثير من المواقف إذا كان أساسها كرامة الإنسان . فإذا حكم (كروتشاف) بأن « حب الذات وطلب الكسب والاستكثار من الربح والمضاربة والتنافس هم أساس الأخلاق البورجوازية » فإن الحكم نفسه نقره باسم الدين والأخلاق الدينية لأننا نعتبر ذلك السلوك مخالفاً للتعاليم الدينية كما تعبر عنه الآية القرآنية : ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [التوبة 34/9] .

ـ أما النظرة إلى مصير الإنسان الأخير فإن الفلسفة المادية تنكر أي معاد مع الله لأنها تنكر وجود الله . إلا أنها لم تتخلص من الطموح الفطري الذي يدفع الإنسان إلى تجاوز قنطرة الموت ، وإلى التغلب على حتمية الفناء ، وإلى البحث عن السعادة الدائمة الصافية ، وإلى التشوق إلى عنصر الوجود والخلود ، لذلك عوضت التبشير بالحياة الأخرى التي تعتبرها خرافة خيالية تبعد الإنسان من واقعه الأرضي بتبشير دنيوي يستبدل جنة الوعد بجنة الأرض التي يصنعها الإنسان بعلمه وإرادته بعد التغلب على التناقضات الذاتية والاجتماعية التي تعاكس مسيرته .

وإلى أن يتحقق ذلك العهد السعيد تطلب الأيديولوجية المادية من

الإنسـان أن يكافـح ويشقى ويجاهـد ويصابـر من أجل الأجيـال الآتية . وهكـذا أصبحت الشعوب « مستسلمـة ولكنها غيـر راضيـة » كمـا يقـول (فيكتـور هيغو) . تضـرب بالأرجـل قلقاً أمـام الأبـواب المتعـذرة التي تفصلهـا عن المواعيـد . تلك المواعيـد التي نجدهـا في أمهات الفكـر المادي ، كما نجدها في تآليف الخياليين مثل (هوكسلي) في (العـالم الأسعد) أو الواقعيين مثل (جاك بابي) في كتابه (العالم الأفضل) .

هذا لا يعني أنه يبعد عن النظام الشيـوعي أن يشيد مجتمعـاً راقياً علمياً واقتصادياً وثقافيـاً ؛ بل إن وجـود الاتحاد السـوفييتي الذي ينـازع الولايات المتحدة في سيطرتها على العالم ، لدليل إذا احتجنا إلى دليل ، ولكنما يعني أن الأيديـولوجيـة الماديـة مهما تـوصلت إليه من إنجـازات تكنولوجيـة واقتصاديـة وثقافيـة فإنهـا لا تكسب مطامـح الفكر الإنسـاني والنفس الإنسانية للأبعاد المعنوية والقيم الروحية والأسـرار الغيبية ؛ لأن الفكر لا يقتنع بالحدود التي تجعلها المادة أمامه ولا حتى العقل . اللهم إلا إذا كـان الفكـر مقتصـراً على حـاجـات المعـاش والأمن والشهـوات العادية . وفي تلك الحـدود قد يرجع الفضل إلى الثـورة الاشتراكيـة في محاولتها لضمان المعاش والأمن والازدهار المادي والثقـافي لكل أفـراد المجتمع ، ولعلها بذلك وبعـد نسفها للعجـل الذهبي الـذي أُشرِب في قلوب الناس تُعَبِّدُ الطريق الذي يؤدي إلى الله .

ولكننا لا نشاهد في آفاق المـادية إلا التعصب الإلحـادي الذي لا ينقص عن تعصب الكنـائس في القـرون الـوسـطى ، وإلى الاستبـداد المذهبي الذي يضع الحواجز والموانع التي تحول دون تحرر الإنسان من استعباد المادية وجبروت الإنسان .

ـــ أخيـراً وعلى مستوى علوم مـا وراء الـطبيعـة تـورطت الفلسفـة المادية في المآزق التي واجهها الكلاميون نفسها سوى أنها تغلبت عليها

بإنكارها مطلقاً وبرفض التوغل في أوحالها . مما جعلها تقف عند شاطىء الغيب وتضع لنفسها حواجز وأسلحة عقلانيـة لتحارب الغيب ، فـإذا بها تجادل في الغيب بوسائل لا تنفذ إليه وتحكم بما تراه على ما لا تراه .

وهكذا نجدها في تعرضهـا لعلوم الأشياء وعلوم الحيـاة تستكشف القوانين التي تُسَيِّرُ الكون بما تستظهره من مكـونات وجـزئيات وتـراكيب وتفاعلات ، ولكنها تستخفي الأسباب والغايات فتؤمن بـالمخلوق وتكفر بالخالق .

وهكذا يطغى ذلك الموقف العقلاني المقصور في منهجية البحث العلمي كما نجده في أمثلة كثيرة .

يقـول (دوفيليي Duvillier) في تقـديمـه لعلم الفـلك « إن أي نظرية فلكية جديرة بالاعتبـار ينبغي ألا تكتسي الطابـع الميتافيـزيقي » . ويعني ذلك أنه قد يصوغ لك كباحث طبيعي أن تنظر في ملكوت السماء وفي نظام الكون وحركاته بشرط أن تكفر بما وراءه من قدرة خالقة وحكمة مدبرة .

الحَظْرُ المنهجي نفسه نجده في المجامع العلمية المنتمية للمادية « إن المنهج المادي في التعرض لمسألـة ظهور الحيـاة ، والاعتقاد بـأن الحياة ظاهرة طبيعية ليس لها علاقة بأي تدخل خارج عنها ، هما شرطان ضروريان لا يمكن للعلماء أن يستغنوا عنهما في محاولتهم لمعرفة قوانين ظهور الحياة » (العلم والمادية الجدلية Recherches Internationales) .

يظهر من الأمثلة السابقة أن الأيديولوجية المادية تدعي أنها تعتمـد على المعطيات العلمية والمنهجية الجدلية ، ولكنها في الوقت نفسـه لا تفلت من المسبقات العقائدية والتخمينات الميتافيزيقية حتى في تعرضها للظواهر الطبيعية .

يدعي (ماركس) أن الفلاسفة من قبله كانوا يحاولون فهم الكـون بينما يدعو هو لتغيير العالم وأوضاع البشريـة . غير أن فلسفـة (ماركس) تحاول تغيير العالم انطلاقاً من تصور فلسفي للكـون مبني على الماديـة والإلحاد . هل هنالك جديد بالنسبة لتغيير الإنسانية ؟ إن النظرة الإسلامية للوجود مبنية على الترابط بين إرادة الله المطلقة التي قدرت وهدت وبين مسؤولية الإنسان في تأدية وظيفته الحياتية ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد 11/13] والرسالة الدينية هي في الوقت نفسه تفسير للوجود وتغيير لذلك الوجود في طريق التـزكية الأخـلاقية والتـرقية الروحية .

2 ـ العلمية المادية

لقد أحرز العلم المعاصر على اكتشافات لم تخطر ببال القدماء حتى في أبعد تخيلاتهم ، وكان لتلك الاكتشافات آثار خطيرة زعزعت المفاهيم والمقاييس الفكرية والعقائدية والأخلاقية التي كانت الأمم تسير في ظلها .

وإذا كان من المعقول أن تفتح تلك الاكتشافات طرقاً جديدة للفكر الإنساني في تصوره لحقيقة الإنسان والكون الذي يحيط به ، فإن ذلك لا يغير من الحقيقة نفسها لا في سننها الخلقية ولا في غاياتها الوجودية .

كما أن الانفصال التاريخي الذي حدث بين العلوم الطبيعية والنظريات الفلسفية لم يكن من نتائجه تكذيب الحقائق العلمية ولا المناهج الفلسفية ، وإنما غَيَّرَ المعطيات التي ينطلق منها العقل لتأويل الظواهر الطبيعية التي يشاهدها في نفسه وفي الكون ، على أسس تختلط فيها الحقيقة والظن والجدلية والعاطفة كما نجده في مختلف الاتجاهات الفلسفية والعقائدية .

1 ـ أما الفلسفة المسماة بالمادية الجدلية التي ينتسب إليها (ماركس) وأتباعه فتعتبر أن العلم هو معرفة القوانين الطبيعية التي تُسَيِّر الأشياء والأحياء والمجتمعات البشرية في مكوناتها وكيفياتها وروابطها وحركاتها وتحولاتها . والهدف العملي من ذلك العلم هو استخدامه لصالح الإنسان في معاشه وأمنه وترقيته المادية والمعنوية بحيث أن معرفة تلك القوانين وتطبيقها على المجتمعات الإنسانية تؤدي إلى تحويل المجتمع عن طريق الصراع المصلحي بين الطبقات المالكة والمستخدمة ، وفي صالح الطبقة العاملة إلى مجتمع مثالي تزول منه التناقضات وتتحقق فيه العدالة والسعادة للجميع .

والجدلية المادية ترفض التوغل في متاهات ما وراء الطبيعة لأنها تعتقد أن المادة التي يتكون منها الكون والتي تحمل في ذاتها صفات الأزلية واللانهائية والوحدة النظامية والجدلية الحركية التي تظهر في تماسك الأجرام وتفاعل الطاقات ونشوء الحياة وتطور الكائنات من دون تدخل أي إرادة خارجة عنها . وفي ذلك القانون الجدلي ليس للإنسان قوة يستعين بها إلا القوة الكامنة في الطبيعة وفي العقل الذي سلحته به تلك الطبيعة ليسيطر عليها ويسخرها لحاجاته ومطامحه الأرضية .

2 ـ هنالك نظرية مادية جديدة جديرة بالاهتمام لفتت الأنظار لأنها في الوقت نفسه تنتمي إلى الجدلية العلمية وترفض الجدلية الماركسية لكونها لم تتحرر من النظرة الغائِيَّة الارتقائية التي تخالف المنهج الجدلي المجرد .

هذه الجدلية العلمية يمثلها أستاذان طبيعيان أحرزا على جائزة (نوبل) هما (جاك منود Jacques Monod) و (ألان جاكوب Alain Jacob) .

يعتمد (جاك منود) في كتابه (الصدفة والحتمية Le hazard et la nécessité) و (ألان جاكوب) في كتابه (منطقية الحي La logique du vivant) على الاكتشافات الدقيقة التي حققتها العلوم البيولوجية في معرفة ظواهر الحياة على مستوى الجزئيات (جينات gènes) التي تتركب منها السلاسل البروتينية داخل الخلايا والنواة الخلوية والتي تُحْدِثُ فيها الظواهر الحياتية كالتركيب والانقسام والتبادل والتفاعل والتوالد التي ينتج عنها توارث الصفات البيولوجية وتنوع الأحياء .

أساس النظرية هو أن كل التفاعلات الطبيعية التي أدت إلى بروز الحياة في الأرض وتطورها وتنوعها هي وليدة للصدفة التي جمعت وألفت بين العناصر المادية الأولى ، فحصلت منها تعقدات تركيبية تتزايد في

الحجم وتتغير في الكيفيات وتكتسب بفاعل الجدلية والقوانين الحتمية طبائع جديدة ، فأدى ذلك التسلسل إلى ظهور مركبات عضوية ثم إلى أنواع مختلفة من النباتات والحيوانات ، ومن بينها وفي أعلى مستوياتها الإنسان صاحب الاستواء الجسمي والعقل المدرك المدبر .

وطبقاً لقانون الصدفة والحتمية لم تخضع تلك العمليات التي تتابعت منذ مئات الملايين من السنين إلى أي قدرة أو إرادة أو حكمة تدبرها أو تسيرها .

الخلاصة الأدبية التي تستخرج عن هذا المنهج الجدلي العلمي هو كما يقوله جاك منود « إن الإنسان يعرف في آخر الأمر أنه وحيد في متاهات الكون الذي نشأ فيه بفاعل الصدفة وأن مصيره ليس مكتوباً في أي مكان . . » وإذا كان الأمر هكذا فأين يوجد مصدر الحكمة والأخلاق ؟ أين توجد طريقة الحقيقة ؟ وأين توجد طريقة الاستلهام الخلقي لإنسانية اشتراكية علمانية إذا لم تكن في عنصر العلم نفسه ، وفي خُلُقِيّةٍ ترتكز على العلم وتجعل العلم باختيارها الحر الفضيلة العليا التي هي مقياس الفضائل والضامن لها (الصدفة الحتمية) .

وهكذا يفتضح الالتباس المنهجي عند رجل ينتمي إلى العلمية فيما توصل إليه في معرفة القوانين الحياتية ، ولكنه يحيد عنها في نظرية أخلاقية ليست من العلم الموضوعي في شيء . ذلك لأنه اعتدى على ميدان الغيبيات بوسائل عقلانية لا تنفذ إلى تلك الغيبيات ، وقد كان من حقه أن يقتصر على عرض الاكتشافات البيولوجية بدون أن يتجرأ على التأويلات الفلسفية والافتراضات الظنية التي لا تغني من الحق شيئاً .

3 ـ قد يمكن أن نعتبر الفلسفة الواقعية التي سادت في الغرب المسيحي كفلسفة ازدواجية تفصل بين حقل الطبيعة وحقل اللاهوت ، وبذلك الانفصال أوقعت العلم والدين في أزمة عقائدية وحضارية انتهت

في آخر الأمر إلى الفرق العميق بين ما هو من شأن (الفلسفة الكلامية Théologie) وما هو من شأن العلوم الموضوعية . وامتد ذلك الانفصال إلى واقع الحضارة في كل مكوناتها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، فتصادمت فيها القيم المادية العلمانية والترفيهية والاستهلاكية مع القيم الأخلاقية والروحية .

قد يعتقد أن هذا الانفصال العقائدي بين علوم الدين وعلوم الدنيا كان له تأثيرات إيجابية على التقدم العلمي والتكنولوجي في العالم الغربي . هذا رأي (جاك منود) حين يقول : « وأخيراً كان ذلك التمييز القطعي الذي طرح كمبدأ أساسي ، هو السبب في تطور العلم . وإني أكاد أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الحادث الوحيد في تاريخ الإنسانية إذا حصل في الغرب المسيحي من دون أي حضارة أخرى فقد يكون ولو بنسبة محدودة راجعاً إلى أن الكنيسة ميزت أساساً بين ما هو من ميدان القدسيات وما هو من الميدان الدنيوي» .

نتساءل إذن لماذا تأخر بعث الحضارة الغربية إلى سبعة عشر قرناً بعد ظهور الكنيسة ؟ الحقيقة أن ذلك الانفصال وقع لا بفضل الكنيسة ولكن رغم إرادتها ، وكان نتيجة لعنصرين تاريخيين الأول مرتبط بظروف الدعوة المسيحية الأولى التي فصلت مبدئياً بين الدين وشؤون الدنيا والدولة . والثاني وهو تابع للأول ويتمثل في أزمة الفلسفة الغربية بعد احتكاكها بالفلسفة العقلانية التي حملها المسلمون ، والتي تؤلف بين حقيقة الرسالة الدينية والحقيقة العلمية المكتسبة بالمشاهدة والبحث والتجربة والاستنباط . وبينما توصل المسلمون إلى التكامل بين علوم الطبيعة والمنهج العقلي من ناحية ، وتعاليم الدين والمنهج النقلي من ناحية أخرى ، فإن الكنيسة تصدت للمكتشفات العلمية والمنهج العقلاني لأنها تتناقض مع أسسها الكلامية واللاهوتية .

بعد ذلك تقدمت العلوم الطبيعية وتحررت من رقابة الكنيسة ، وتحولت إلى خدمة الطبقة البورجوازية الطامحة ، وتقدمت بسرعة متزايدة مع التقدم الصناعي والتكنولوجي والاقتصادي بينما بقيت العلوم الدينية متمسكة بالرصيد العلمي الكاسد الذي ورثته عن الأولين .

وكان من شأن الفكر العلماني المنقطع عن تأثيرات التعاليم الدينية أن يخرج بنظريات مادية علمانية يفسر بها وجود الكون ونظام العالم وقوانين الحياة دون أي التفات إلى تعاليم الدين .

وأثر هذا الفكر الانفصالي الرافض لحقيقة الدين على أغلبية الأجيال من الفلاسفة والمفكرين في الغرب . وهذا التأثير نجده أخيراً عند الأستاذ (غارودي) في محاولاته للتقريب بين التعاليم المسيحية والفكر الماركسي ذلك ما يظهر من قوله « ليس من شأن علوم الفلك والفيزياء والنفس ولا التاريخ ولا السياسة أن يفترضوا وجود الله لا في تكوينها ولا في تفسيرها لمسببات الأشياء . إن الإلحاد المنهجي يعني إلغاء أي نظرية ميتافيزيقية على مستوى العلم . وإلغاء أي تدخل علوي من الميدان العملي هو علاج حتمي للاعتقاد الديني (Marxisme du XXe Siècle) .

وهكذا يقر (غارودي) باستقلالية العلم عن الدين ، ويدعو إليها كمنهج فكري وعلمي إلى أن وفقه الله بالجمع بينهما تحت ظل الهداية الإسلامية . .

الحقيقة هي أن الفصل العلمي والعملي بين العلم والدين يجعل كلاً منهما يفتقر إلى الآخر وينحرف عن حقيقته .

إذا أبعدنا عن الدين كل ما هو معرفة وتجربة وعقل واستنباط فكري وعملي فذلك يعني استنزاف العقيدة من محتواها الحياتي ، وإذا مات المريض فإنه لا يحتاج إلى علاج . وماذا نعالج في العقيدة إذا جعلناها

في هامش العقل والحياة ؟ ليس لها إذن إلا أن تلتحق بالمثاليات المجردة والخرافات المسلية والتعبدات الشكلية التي لا تخرج من جهل ، ولا تسمن ولا وتغني من جوع .

وإذا أبعدنا من العلم كل ما هو معنى للوجود وغاية للعمل به فإن ذلك العلم يتحول إلى قدرة طاغوتية تستخدمها الشهوات الطاغية والمطامع الفاسدة .

إن الانفصال بين الدوافع المادية والقيم الروحية تسبب في الحضارة الغربية على مستوى الأفراد والجماعات في فقدان التوازن النفساني والتطبيقي بين التقدم العلمي والتزكية الأخلاقية .

إن العقيدة الدينية إذا وهنت في مقوماتها ، وتخلفت في مفاهيمها ، وانعزلت عن الواقع البشري والحضاري ، فإنها تتلاشى وتفقد سلطانها الأخلاقي على الفكر في نزعاته ، وعلى العلم في تطبيقاته ، وعلى الإنسان في دوافعه السلوكية وتصرفاته .

إن الدين لا يفقد وظيفته التوجيهية والتكميلية حتى في ميادين المعرفة المجردة ، وحتى في طابعها الجمالي المحض . وليس من صلاحية النزعة العلمانية أن تنكره أو تبعده . حينما أنظر إلى زهرة وألاحظ تراكيب أطرافها وأجزائها وأبحث في أسرار حدوثها ونموها وتوالدها ، فإن لي الحق الذي لا ينكره علم ولا جدل في أن أرى في ظاهرة الزهرة دليلاً على وجود الخالق الذي قدرها وسواها ، كما قال الشاعر :

عيون من لجين شاهدات   بأن الله ليس له شريك

كما للملحد حق بالنسبة إليه أن يرى في ظاهرة الزهرة آية من آيات الصدفة .

الخلاصة هي أن سوء التفاهم لا ينتج عن الالتباس الذي قد يقع

بين منهجين مختلفين للإدراك هما منهج المشاهدة ومنهج الإيمان ، وإنما ينتج عن الانفصال العقائدي الذي تتصارع فيه نظرتان للوجود ؛ النظرة المادية والنظرة الدينية . والحكمة في الإسلام لا تقبل التناقض بينهما ؛ بل تجمعهما في الوحدة المتكاملة ، بين ما تدركه الأبصار وما لا تدركه الأبصار ، بين ما نصل إليه عن طريق الحس والمشاهدة وما يصل إلينا عن طريق الوحي النبوي الصدوق .

***

الفصل الثاني

الدين والعلم في الفلسفة الإسلامية

1 ـ الإسلام وفلسفة العلم

فلسفة المعرفة في أبعادها النظرية

إن النظرة الإسلامية للعلم تجعل العلم صفة إدراكية وعملية يتميز بها الإنسان بما خوله الله من عقل ومن مسؤولية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . ﴾ [البقرة 31] ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق 5/96] وتمتد مجالات المعرفة كما سنشرحه من بعد إلى المعرفة الكامنة اللاشعورية التي توجد في الكائن الحي والمعرفة العقلانية المكتسبة بالحواس والبحث والتحليل والمعرفة الغيبية المكتسبة عن طريق الوحي النبوي . وإذا كان الناس يشتركون مع بعض التفاضل والتفاوت في المعرفة الفطرية والعقلية ، فإنهم يختلفون في تصديق تعاليم الوحي .

والنظرة الإسلامية للعلم لا تنكر الحقيقة العلمية التي يتوصل إليها العقل الإنساني بالمشاهدة والتحليل والاستكشاف ، ولو كان مكتشفها لا يؤمن بالدين ، كما نجد ذلك في الاستدلال القرآني ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء 30/21] .

ولكن الإسلام يجعل الحقيقة المشهودة تدخل في حقيقة أكبر وأوسع هي حقيقة وجود الخالق المدبر لهذا العالم والمقدر لقوانينه ووظائفه .

قد يكتشف العقل البشري من القوانين الكونية والسنن الطبيعية

الثابتة التي تخضع لها الكائنات ؛ ولكنه لا يصل إلى الكليات ولا ينفذ إلى الغايات مهما اتسعت وتعمقت معرفته للتفاصيل والجزئيات سواء في الأجرام الكبيرة والصغيرة في العالم المشهود .

أما من جهة العقل البشري في حكمه على الغيبيات فإن دوره ينطبق على ظاهر الأشياء لا على الحقيقة المطلقة . ولما كان للعقل رأي في تلك الغيبيات انطلاقاً من تأويل أو تحليل المعطيات العلمية فإنه قد يمكن للعلم أن يصحح أو يكذب تأويلات الكلاميين والمفسرين والفلاسفة ولكن هذا التصحيح أو هذا التكذيب لا يحيط بحقيقة الكون كما هو ، ولا بحقيقة الحياة في أصولها ومصيرها .

إن المفسر الذي يتدبر آيات القرآن ينطلق من المعطيات النقلية والعلمية التي ورثها من السابقين ، ويستعين باجتهاداته ومعلوماته الخاصة ، وهكذا نجد المفسرين الأوائل يستشهدون بالنظريات وحتى بالخرافات التي يجدونها عند المصريين والبابليين واليونانيين . كما أن المفسرين في العصر الحديث قد يستعملون الرصيد العلمي والنظري الحديث الذي هو قابل للتطور والتغير .

والملاحظ هنا أن العلم مهما بلغ من التقدم والاتساع والإنجاز التكنولوجي لا يصل إلا لحقائق محدودة ونسبية هي دائماً في تجدد وتصحيح قد يسوغ الاعتماد عليها في حدود المحسوسات والمعقولات والتطبيقات العملية ، ولكنها تفقد من دقتها وصلاحيتها لما تحاول التقرب من الحقائق الكبرى ، وحينذاك تنتقل من الموضوعية إلى الاستقراء والتخمين حيث تنتكس معالمها وتختلط مسالكها .

ولعل أبرز مثال نضربه عن قصور النظريات العلمية نلقاه في نظريتين فلكيتين لم تتغلب إحداهما على الأخرى . تعتقد الأولى أن العالم له بداية من الزمان ، وأنه يتسع في المكان منذ نشأته الأولى ، وقد

يستدل بعض المدافعين عن وجود الخالق بإثبات هذه النظرية . وتعتقد الثانية أن العالم أزلي الوجود ليس له بداية ولا نهاية ، وقد يستدل بها بعض المنكرين لوجود الخالق .

والحقيقة أنه لا يوجد أي تناقض بين النظريتين إلا في ذهن الإنسان ، وأن الاستدلال بالنظرية لا يؤدي إلى الحكم القاطع . وحتى إذا افترضنا إثبات أي من النظريتين فذلك لا يؤثر في الاعتقاد بحقيقة الله . فإذا قلنا أن للعالم بداية في الزمان ، فذلك معناه أن الله خلقه من العدم في زمن ما . وإذا قلنا إن العالم قديم فذلك معناه أن صفة الخلق صفة أزلية لا تنفصل عن صفات الله . هذا إذا افترضنا أن عقل الإنسان قد يتصور ما معنى الزمان والعالم والأزلية والخلق ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾ [البقرة 255/2] .

إن الجدل والمجادلة في هذا النوع من المسائل يجر العقل الى اقتفاء ما ليس في متناوله لا حسياً ولا علمياً سواء ذلك في جزئيات العالم المشهود أو في حقائق العالم الغيبي . إن نظرتنا البسيطة لنجوم السماء سواء كان ذلك عن طريق البصر أو عن طريق الآلات والحسابات تعطينا عن الكون صوراً مختلطة في الزمان والمكان ليس لها أي صحة في البرهة التي نشاهدها فيها ، وأقرب نجم يلوح لنا في السماء ـ ما عدا الشمس ـ ترجع رؤيته إلى ما كان عليه قبل أربعة سنين ، وتبتعد رؤيا النجوم الأخرى إلى آلاف وملايين السنين فكيف يتصور العقل حقيقة العالم وما وراء العالم سواء في كلياته الكبرى أو في جزئياته الصغرى .

إن وحدة العلم لا تنفصل عن وحدة الخلق ووحدانية الخالق ، كما لا تنفصل فيها معطيات العقل وأنباء الوحي ، وكما لا تنفصل المادة والروح في الكائن الحي .

وفي هذا المعنى الموحد والمتكامل تتضح وظيفة العلم على

مستوى الإنسان وطبقاً لغاياته الوجودية والتكليفية في المحاور الآتية :

1 ـ **استكشاف العالم الطبيعي** بما في ذلك الإنسان في كيفياته وقوانينه التي يسير عليها . ولهذا الاستكشاف بُعدان :

بُعْدٌ يؤكد الصلة بين الخالق والمخلوق ، وهو التدبر في آيات الكون والاعتبار بما فيها من قدرة وحكمة وهيمنة إلهية . وتتحول هذه المشاهدة إلى عبادة بالفكر والقول والجوارح : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران 191/3] .

وبعد عملي وهو التعرف بأحوال الطبيعة وقوانينها وثرواتها وطاقاتها لاستخدامها في صالح الحياة الدنيا وتسخيرها للإنسان .

2 ـ **استكشاف المقاصد والغايات** في وجود العالم وبروز الإنسان في الأرض ، وهذا الاستكشاف لا يستغني عن ثلاثة عناصر مترابطة ومتكاملة :

ـ عنصر فطري كامن في غريزة الإنسان التكوينية والنفسانية .

ـ عنصر عقلاني يستعمل به الإنسان منهجيات التحليل والاستنباط والبحث والتجربة لاكتشاف العلاقات التي توجد بينه وبين الكون .

ـ عنصر روحي يسلك طريق الوحي النبوي ليرشد إلى المقاصد الأولى والنهايات الأخيرة التي لا يصل إليها العقل المجرد .

3 ـ **استكشاف المناهج والمقاييس العملية** ليكون السلوك الأخلاقي مطابقاً للمقاصد والأهداف الوجودية ، وذلك العلم هو الحكمة أو فلسفة الأخلاق ويشتمل على المرافق التالية :

ـ التمييز بين ما هو موافق للأهداف الوجودية وما هو مخالف لها .

ـ وضع القوانين والنظم على مستوى سلوك الإنسان الفردي والجماعي .

ـ التقيد بالمقاييس الأخلاقية .

لا يمكن في النظرة الدينية للعلم أن يكون هنالك أي تناقض بين تعاليم الدين الأساسية ومكتسبات العلم العقلاني لأن كلاهما يضيء جزءاً من الحقيقة ، وتلتقي الأضواء في ضمير المؤمن ، كما تلتقي الألوان السبعة في الطيف الشمسي .

ولا يظهر التناقض بين معطيات العلوم الطبيعية والعلوم الدينية إلا في حالتين سلبيتين : حالة يخطىء فيها رجل العلم جهلاً منه لحقيقة الدين ، وحالة يخطىء فيها رجل الدين جهلاً منه لحقيقة العلم ، وذلك ما ابتلي به فكر الإنسان عبر تاريخه الحضاري بما في ذلك تاريخ الأمة الإسلامية .

أما الإسلام في أصوله العقيدية فيجمع بين منهجين لا ينفصلان وحدتهما الأساسية، منهج العقل ومنهج الوحي ، وكل منهما يرتكز على الآخر لتتكون منهما وحدة العلم كما نراها في الآية ﴿ **إِنَّما يَخْشى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر 28/35] وكما تعبر عنها الآية التي تصل بين علم الكائنات والإيمان بالله الحق : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** . . . ﴾ [فصلت 53/41] .

إن التعارض الذي كثيراً ما يظهر في ذهن الإنسان بين المنهج العقلاني والمنهج الإيماني ناتج عن نظرة متباعدة لحقيقة واحدة ، لأن النور الإلهامي الذي يضيء ضمير الإنسان بنور الإيمان هو النور نفسه الذي يضيء ذلك العقل بنور المعرفة ، ولأن الإيمان بالغيب لا ينقص مما وصل إليه الإنسان في استكشافه لآيات الكون ، وإنما يضيف إليه تكملة تعرفه بحكمة وجوده في الزمان والمكان .

ولا فرق هنالك بين نظام الفلك الكبير وبين الجزئيات الدقيقة التي يكتشفها في الكائنات .

إن التعمق والتوسع في معرفة الخلق يدعو إلى التواضع أكثر مما يدعو إلى الاستكبار . وإذا كان الإنسان قد يصل بعقله إلى استكشاف الطاقات الكونية الهائلة واستخدامها ، فإنه يقصر على استقصاء الكليات والغايات ﴿يَعْلَمونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلونَ﴾ [الروم 7/30] .

فلسفة العلم في أبعاده العملية

إن الإسلام لا ينكر الواقع البشري ، ولا ينطق عن الهوى ، وإنما يعطي لذلك الواقع بُعْدَيْنِ متتابعين مترابطين :

بعد الحياة الأرضية

وبعد الحياة الأخروية

كما يعطي للعلم بُعْدَيْنِ متكاملين :

بُعْدٌ عقلاني يكتشف به الإنسان سنن الخلق في نفسه وفي الكائنات التي تحيط به .

وبُعْدٌ روحي يصله بالإرادة الخالقة والمدبرة للكون .

والنظرة الدينية للوجود كما رأيناها وكما سنشرحها من بعد لا تكتمل إلا بلقاء متداخل ومتكامل بين ثلاثة عناصر من المعرفة :

ـ عنصر الفطرة التي يكمن في القوة الحسية اللاشعورية الكامنة في كل المخلوقات الحية .

ـ عنصر العقل الذي يتميز به الإنسان ، والذي يكمن في القوة الشعورية الإدراكية والإبداعية التي يكتسبها الإنسان نقلاً وتجربة واستكشافاً وتحليلاً .

ـ عنصر الوحي الذي يكمن في ظاهرة النبوة ، والذي ينبىء بالحقائق الغيبية والغايات الوجودية ، ويضع المقاييس العملية لبلوغ تلك الأهداف .

تلتقي هذه العناصر ليكتمل بها الإنسان في أبعاده الخلقية ووظائفه الوجودية .

أما الفطرة فهي : استعداد نشئي في النوع البشري يهيئه للقيام بوظيفته الحياتية التي تتحقق في دوافع المعاش والأمن والتناسل وتعمير

الأرض ، وبوظيفته الوجودية التي يتطلع فيها إلى أسرار خلقه ومقاصد وجوده وتلبية خالقه .

وأما العقل فهو : الوسيلة الواعية التي يستعملها الإنسان في خدمة الفطرة ليرفعها إلى مستوى المسؤولية والتكليف ، إدراكاً للكون واستخداماً لما فيه من طاقات واستقصاء لأسراره ومقاصده .

وأما الوحي فهو : المكمل لتطلعات الفطرة يضعها في منهاجها الوجودي وفي أبعادها الحياتية والأخلاقية والدينية ، ويمتد دوره إلى أنباء الغيب ، وهي وجود الله ووحدانيته واليوم الآخر ، وإلى العبادات التي تصل الإنسان بالخالق ، وإلى المقاييس الأخلاقية في السلوك والمعاملات طبقاً للوظيفة التي خلق من أجلها .

ويتم الانسجام بين العناصر الثلاثة بالهداية التي هي نور إلهي يتفتح له (القلب) حيث تجتمع وتتألف القوة الاستعدادية والقوة الاستقبالية ﴿ **نورٌ عَلى نُور يَهْدي اللَّهُ لِنورِهِ مَنْ يَشاءُ** . . . ﴾ [النور 35/24] .

كيف تكتمل النظرة الدينية لواقع الإنسان ؟ هذا ما نلخصه في الملاحظات التالية :

1 ـ في الميدان العملي تنطلق النظرة الإسلامية من مبدأ الاستخلاف في الأرض ، وهو تكليف الإنسان بوظيفة (الاستعمار) ﴿ **هُوْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها** ﴾ [هود 61/11] بما يقتضيه ذلك من جهود حياتية وإصلاح في الأرض وعدالة بين الناس وإحسان في المعاملات .

ويرتبط الميدان الحياتي بالميدان المصيري ، حيث أن الحياة الدنيا تعتبر كمرحلة وجودية يستعد فيها الإنسان نفسياً وأخلاقياً وروحياً إلى الحياة الأبدية . ويفترض ذلك الاستعداد أنواعاً من الجهود

والابتلاءات منها ما هو تابع لوظيفة الاستخلاف وهي الجهود لإخضاع الطاقات الطبيعية وضمان العيش وإبقاء النسل البشري ، ومنها ما هو تابع لداعي الارتقاء الروحي والأخلاقي بما في ذلك من جهاد واجتهاد للتغلب على الدوافع الشهوانية والإغراءات السلبية وللارتقاء في الأبعاد الفاضلة الأخلاقية والروحية .

2 ـ الأخلاق الإسلامية مبنية أصلاً على التكامل والتوازن بين القاعدة المادية الحياتية التي تتمثل في المرافق المعاشية والاقتصادية والاجتماعية ، وهي كل ما تعنيه الخلافة الأرضية ، وبين التزكية الروحية التي تصل الإنسان بخالقه . ويحصل هذا التوازن بهيمنة الأخلاق والأهداف الدينية على الحاجات الحياتية والترفيهية . فإذا كان النظام الاقتصادي والاجتماعي هو الأساس الذي يضمن وجود الإنسان في الأرض ، فإن الدين هو الحكم الأخيرالذي يوجه تصرفات الإنسان الفردية والجماعية . وهذه الهيمنة لا تعني إهمالاً لضرورات الاقتصاد ومتطلبات الحياة الحضارية ، وإنما تعني أنه يخضعها لأهدافه ومقاصده ومقاييسه .

كما أن هذه الهيمنة لا تعني أن الدين يتدخل في تفاصيل التدبير والتسيير التي هي من صلاحية العقل المدرك والمبدع ، وإنما يتدخل لضمان مقاييسه الأخلاقية حتى لا يكون الاقتصاد دولة بين الأقوياء وسبباً في استغلال الناس واستضعافهم واستعبادهم . لذلك نجد المقاييس الأخلاقية تبتعد عن المنهج الرأسمالي الربوي والإقطاعي كما تبتعد عن المنهج الشيوعي الذي لا يعترف بالملكية أصلاً ، وتقترب من نظام وسط يحترم حرية العمل والكسب مع تحديد الشروط النظامية والقانونية التي تربطه بالمصلحة العامة وتلزمه بالعدالة والتضامن وعدم الإساءة .

3 ـ الوحدة العقيدية تجعل أن كل فرد يتحمل المسؤولية المشتركة وأنه يجازى أو يعاقب عليها حسب ما نوى وما عمل مرضاة لله . مسؤولية

مشتركة لا تنفصل فيها العبادات والمعاملات كما يظهر ذلك في الأصول العقيدية وفي التشريعات .

إن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان وعمل الخير والإصلاح ، وينهى عن المنكر والظلم والفساد . يحارب البخل الذي يكدس المال ولا ينفقه في سبيل الله ، ويوصي بالرحمة والتعاضد والإحسان : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى** ﴾ [الليل 5/92 - 10] .

والإسلام يحارب الظلم والاستغلال والاستبداد والتمييز بين الفئات والأجناس : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ** ﴾ [الحجرات 13/49] .

الإسلام يدعو إلى تزكية الإنسان في أبعاده الذاتية والنفسية والعقلية والأخلاقية والروحية ، ويسعى بـه إلى السعادة والكرامة ، ويدعو إلى مجتمع قوي باقتصاده وبعلمه وبأخلاقه الاجتماعية والروحية .

4 ـ في تعرضه لمعرفة نظام الكون وتنظيم أمور الدنيا يرتكز الدين على العقل والتجربة والبحث والمعاينة والتحليل والاستنباط .

أما معرفة الكون في مكوناته وطبائعه وتطوراته وحركاته فتجمع بين ثلاثة أهداف متتالية :

1) معرفة الأشياء تلبية لدافع استطلاعي يتميز به عقل الإنسان في تطلعه الفطري لمعرفة العالم الذي يحيط به .

2) معرفة الأشياء تلبية لدافع مصلحي تخضع فيه المعرفة إلى مطامح الإنسان المعاشية والأمنية والترفيهية والجمالية .

3) معرفة الأشياء تلبية لدافع إلهامي يدعو الإنسان إلى الاتصال بالحكمة التي تسير الكون .

2 ـ مجالات المعرفة

لما جاء الإسلام بمفهوم موحد وشامل للكون في خلقه وفي مصيره ، ولما كان العلم في مفهومه المطلق من صفات الله الأزلية ومن فيضه ، فإن مجالات العلم تشمل الكائنات في كيفياتها وفي واقعها وفي مصيرها .

من خاصية الإنسان أن الله خوله العقل وجعل فيه قدرة الإحساس والإدراك والتعلم والتدبر والإبداع ، ولكن هذه القدرة مهما نمت وتوسعت فإنها تبقى نسبية لما يحدها في نفسها لأنها متعلقة بتركيب المخ ونشاطه ، ولأنها لا تنفذ للغيبيات ولا تحيط بالنهايات . فلا يقارن علم الإنسان النسبي بعلم الله المطلق : ﴿ **وَلا يُحيطونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِما شاءَ** ﴾ [البقرة 255/2] ﴿ **وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً** ﴾ [الإسراء 85/17] .

مجالات العلم في معناه المطلق الذي هو من صفات الله يشمل الكائنات كلها في واقعها وفي مصيرها ، لأنها تسير بعلم الله وقدرته وحكمته .

ـ منها ما هو كامن في المخلوقات الكونية والحيوانية ويسيرها في حركاتها وروابطها وتنوعها وتطورها .

ـ ومنها ما يتجلى لعقل الإنسان عن طريق الإحساس والإدراك والتحليل والاستدلال العقلاني .

ـ ومنها ما يتجلى لعقل الإنسان عن طريق الإلهام والوحي النبوي من الغيبيات الكبرى كوجود الخالق وصفاته والبعث والحساب .

وهكذا يتضح أن العلم في معناه الموحد يتفرع على ثلاث مستويات ؛ تلتقي في الأصل الذي هو علم الله ، وتختلف في المناهج كما نبينه في الرسم التالي وفي التعقيبات التي تليه ، ويبين الرسم نوعية المعرفة ونوعية السلوك الذي يقابلها .

الوحي

نوعية المعرفة	نوعية السلوك
المعرفة الغريزية النباتية (وهي معرفة لا شعورية تكمن في كل الكائنات الحية)	النشاط الحياتي الغريزي الذي يميز كل ظواهر الحياة النباتية والحيوانية (مثل التغذية والنمو العضوي والتناسل . . .)
المعرفة المشتركة حسية وغريزية : يشعر الكائن الحي بالحاجة الغريزية ويتصل بها وعياً وعملاً	النشاط الحيواني الفطري الدافع الفطري (الطعام ، الدفاع ، التناسل) يستخدم معطيات الحس والإدراك البدائي
المعرفة الإدراكية العاقلة ـ معرفة الكيفيات والقوانين الطبيعية ـ تقدير الأهداف والعواقب ـ تطوير وسائل الإدراك والاتصال ـ اختراع الوسائل الآلية لتسخير الطاقات واستخدامها	العمل الإيرادي ـ استخدام الطاقات الطبيعية ـ تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية ـ تدبير السلوك طبقاً لأهداف مقررة
الوحي النبوي ينبىء بالغيب (البدايات ـ النهايات والغايات) ويعلم المنهج العملي لبلوغ تلك الغايات	ـ تصديق الرسالة النبوية ـ الامتثال لتعاليمها الدينية والتشريعية والأخلاقية
التطلع الفكري لمعرفة البدايات والنهايات والغايات (الفلسفة وعلم ما فوق الطبيعة) إما أن تكون روحية تؤمن بالقيم المعنوية وإما أن تكون مادية لا تخرج عن المادة والزمان	1) العقائد المثالية تحاول تحقيق السعادة في القيم الفاضلة (الحق ـ الجمال ـ الخير) 2) العقائد المادية تحاول تحقيق السعادة في تلبية الشهوات المادية والترفيهية

1 ـ هنالك نوع من المعرفة الكامنة في المخلوقات وهي التي تسيرها بفاعل الغريزة والإلهام أو ما نسميه قانون الطبيعة في الجماد والنبات والحيوان ، وهي التي يتحقق بها نظام الكون ووظائف الحياة ، وهي التي نشاهد مظاهرها في نظام الكون وخضوعه لخالقه ومسويه كما تشير الآية : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلونَ** ﴾ [النور 41/24] .

سنقتصر على جسم الإنسان نفسه لإظهار تلك المعرفة الهائلة التي تكمن في ذاته العضوي من دون أن يتدخل فيه الإدراك العقلاني ولا الإرادة المدبرة .

يكون جسم الإنسان منظومة حية متكاملة الوظائف مترابطة الأوصال والأعمال كل خلية فيها وكل جزء من الخلية فيها معجزة خلقية ، والمعجزة الكبرى هي معجزة التدبير والتنسيق والمراقبة والمواصلات بين الأعضاء ليتم نظامها وعملها في خدمة الهدف الحياتي التي سخرت له .

تعرف الأعضاء من دون شعور أو إدراك ، وأحسن من أرقى مخبر يوجد في العالم الحديث كيف يحول لقمة الخبز إلى مركبات سكرية مماثلة لمزاج الجسم ، وكيف تحول الأغذية المختلفة الخامة الى مركبات عضوية دقيقة التماثل والاختصاص تصنع منها خلايا وجزئيات اللحم والدم والعظم والأعصاب .

وتعرف أحسن من أمهر عالم اقتصادي كيف تنظم وتنسق وتراقب وظائف التحويل والتصنيع والتخصيص والتوزيع لأنواع لا تحصى من المركبات الغازية والمعدنية والعضوية التي تنتشر على سائر الأعضاء ليقوم كل منها بوظيفته الخاصة .

وتعـرف أحسن من أي قائـد يسهر على الأمن كيف يصنـع ويعلم ويـدبر الـوسائـل الأمنية والـدفـاعيـة التي تحـافظ على صحـة الجسم ، وتحارب الآفات والسموم والجراثيم التي تتكون في داخله أو تنفذ إليه من الخارج .

وأخـيراً ، تـعرف بـوظيفتها التـوالديـة كيـف تصنع مـن نفسهـا وبإذن خالقها خلايا نطفية تحمل في نواتها دليـلاً عملياً مكتـوباً ومـأموراً ليبني إنساناً جديداً .

ثم يعرف الجسم كيف يستخدم الآلات الحسيـة من بصر وسمـع ولمس وذوق وشمّ ، ليتصل بالوسط الخارجي ليأخذ منه العناصر الحياتية من هواء وماء وغذاء وأشعة تورية وطاقات طبقاً لذلك (الضمير الخفي) الذي يدفعه إلى إبقاء الحياة والذي يلهمه منذ ولادته إلى امتصاص حلمة الثـدي ، إلى أن تتكون في نفسـه عـواطف الحب والكـراهيـة والبخـل والتضحية والطموح ، إلى الجمال والكسب والجاه ، وأبعد من ذلك إلى التساؤل والبحث عن أسرار الوجود وغيب المصير وحقيقة الخالق ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم 30/30] . .

ذلك النوع من المعرفة الكامنة في الخلايا والأعضاء والجسم قليلاً ما تثير تعجبنا ، لأننا ألفنا طبيعتها ، ولكننا إذا استقصينا الظواهر الطبيعية الدقيقة كـظاهرة المنـاعة أو التبـادلات التي تحدث بين جـزئيات النـوى وأجسـام الخلايـا وصنع المـركبات الكيميـائيـة والإنـزيميـة والبـروتينيـة والهرمونية التي تتدخل في نشاط الأعضاء ، وتنظيم التبـادلات بينها ، أو كظاهرة التناسل وما تحمله النطفة من قدرة خلقية وإنمائية ، هنالك يتضح لنا أن المكتسبات العلمية التي توصلت إليها الحضارة الحديثة قد كشفت عن عجائب خلقية هائلة .

ولا زالت تخوض غمار الأسـرار الكونيـة في الصغائـر والكبائـر ،

ولكنها كلما كشفت حجاباً تصادمها حجب كثيرة من ورائه . ولذلك نقول إن الإنسان مهما تقدم في معرفة الكون البعيد وجزئيات الذرة الصغيرة فإنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً .

2 ـ النوع الثاني من المعرفة ، هو ما يظهر تحت نور العقل الإنساني ، إما مشاهدةً وإما تحليلاً ، وإما نقلاً سمعياً أو كتابياً . العقل يكتشف بإدراكه الخاص وجود الأشياء وكيفياتها وعلاقاتها وحركاتها وتطوراتها ، ويتراكم ذلك العلم في ذاكرة الإنسان والأمم ، وتتكون منها أنواع العلوم التي تتميز بها الحضارات الإنسانية ، من علوم طبيعية (كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفلك . . .) ، وعلوم تطبيقية (كالصناعة والهندسة والفلاحة ومختلف أنواع التكنلوجيا) ، وعلوم إنسانية (كالسياسة والتاريخ والفلسفة والاقتصاد والآداب) ، وعلوم تجريدية مساعدة للعلوم الأخرى (كالرياضة والآلية والمنطق والحساب) .

داخل كل هذه الأنواع من العلوم تطورت اختصاصات دقيقة ، وتسبب ذلك التطور في ظاهرتين خطيرتين ، أولاهما أنه يستحيل على أي إنسان أن يحيط بجل العلوم ، وثانيتهما أن الإنسان فقد النظرة المتكاملة الموحدة للوجود ، ومن أجل ذلك تاه في الجزئيات ، وفقد روابطه مع الأصول الروحية التي تتحكم في الكون ، فأثر ذلك سلبياً على فكره وعلى سلوكه الأخلاقي .

ولكن هذا النوع من المعرفة العقلانية ليست منفصلة على المستويات الأخرى ، لأن العقل كما رأيناه يأخذ جذوره من الفطرة الخلقية ويستكشف أسرارها بالبحث العلمي والمشاهدة ، كما أنه يمد فروعه إلى الأسرار الغيبية ويسائلها بوسائل الرأي والقياس والتحليل الفلسفي .

ـ أمّا على واجهة الفطرة ، فنرى العقل يتدخل إدراكاً وعملاً فيما يسري في الذات البشرية من كيفيات ووظائف وغرائز وتفاعلات وأحوال ، بل ويتدخل في الطبيعة إما لتلبيتها ومساعدتها في حاجاتها وشهواتها ، وإما لتنظيمها طبقاً للأهداف العقلانية والأخلاقية أو الدينية ، وإما للدفاع عنها بوسائل الوقاية والعلاج الطبي .

ـ وأمّا على واجهة الأسرار اللاهوتية ، فيحاول العقل أن يتسلق إلى ما فوق المظاهر والظواهر ليستكشف الحقائق الأولى والأخيرة . الفلسفة هي ذلك المنهج الذي يسلكه العقل للتطلع عن أسرار الوجود . تنطلق من معطيات المشاهدة ، وتعتمد على وسائل العقل المنهجية ، ولكنها بسبب تلك المنهجية نفسها تقف دون الغيب وتتيه دون الغايات .

تحتل الفلسفة مكانة حرجة بين العلم الموضوعي والغيب اللاهوتي ، بحيث أنها تتراوح بينهما ، وتتعرض للانتقاد من كلا الطرفين . أما الموقف العقلاني فإنه يمكن للعقل حق التوغل في مجاهل ما وراء الطبيعة لأنه ينكر وجود ما وراء الطبيعة . وأما الموقف الديني فإنه يعتبر الفلسفة قاصرة على النفوذ إلى الغيبيات بوسائلها العقلانية . مثال الموقف الأول هو في عنوان الكتاب الذي ألفه (ماركس) نقداً للفلسفة وهو (شقاء الفلسفة Les misères de la philosophie) . وأما الموقف الديني فأحسن عنوان له كتاب أبي حامد الغزالي الذي يرد فيه على المنهج الفلسفي الذي تبناه بعض الفلاسفة المسلمين اقتباساً من الفلسفة اليونانية . ذلك العنوان هو (تهافت الفلاسفة) .

إلا أنه من الإنصاف ـ ورغم المتاهات التي تتعرض لها الفلسفة ـ أن نعترف بأن الفلسفة كانت ولا تزال تمثل جهود الفكر الإنساني للاتصال بالحق والحقيقة ، ثم لتعديل سلوكه طبقاً للحكمة التي تسير الكون . ورغم أن الفلسفة بقيت معلقة بين ظاهر الأشياء وباطنها ، وبين واقعها

وغيبياتها ، وبين معطيات العلم وتعاليم الدين ، ورغم القصور والغرور الذي يصيبها ، فإن ذلك لا ينقص من أهميتها كمنهجية فكرية تعين الإنسان في طرح المسائل العارضة له واستنباط الحلول الملائمة له ، وتنظيم المعطيات العقلانية والكلامية لتكون رصيداً في ترسيخ عقيدته وتهذيب سلوكه .

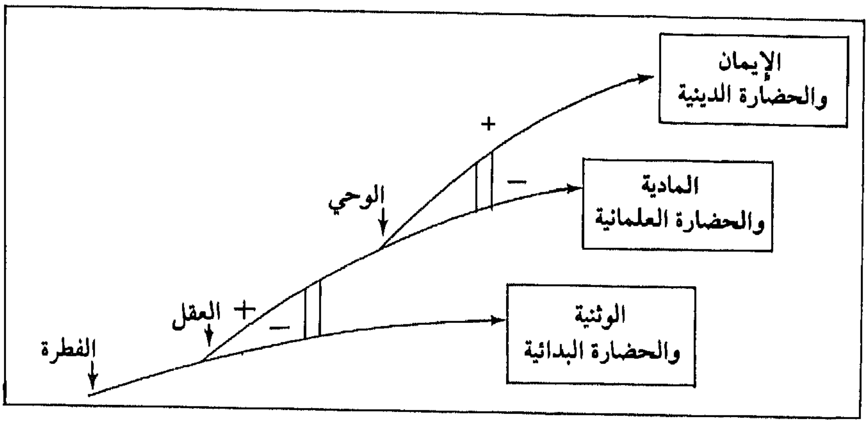
3 ـ النوع الثالث من المعرفة هو ما تتعرض له ظاهرة النبوة التي تأتي بأنباء لا يدركها الإنسان بإدراكه الحسي والعقلي . فالدين ـ ولسنا نعني بالدين تلك المعتقدات الطبيعية والوثنية والخرافية التي سادت في الأمم القديمة ولا زالت سارية في بعض الأمم المتخلفة ، وإنما نعني الدين الصادق الذي جاءت به الكتب السماوية ـ يأتي بمفاهيم للوجود وللمصير تخرج عن نطاق التحليلات الموضوعية وعن التأويلات النظرية ، ويعلم بوجود الخالق ووحدانيته وصمديته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته . خلق الكائنات كلها وأخرج الحياة من الجماد ، وخلق الإنسان وعلمه الكلام والبيان ، وخوله العقل ، وكلفه بمسؤولية الخلافة الأرضية ، وأمره بعبادته ، وشرع له مقاييس الفكر والسلوك ، وواعده بالبعث والجزاء .

ومن العلوم التابعة للدين علوم الفقه والأصول التي تبحث في التوحيد والكتاب والسنة النبوية وفي العقائد والعبادات والمعاملات .

ومنها علم الكلام الذي هو بمقابل الفلسفة العلمانية محاولة إنسانية لتأويل واستنباط معاني الكتاب المنزل ولتثبيت حقيقتها بوسائل الاستدلال الجدلي والفلسفي . ورغم أصالته العقيدية ومنهجيته العقلانية فإن علم الكلام قد يتعرض للأخطاء والمتاهات التي تتعرض لها الفلسفة نفسها ، وذلك لأنها تعتمد على معطيات علمية تتغير وتتطور ، وهذا لا ينفي أن علم الكلام كان له دور مهم في الدفاع عن العقيدة ودحض النزعات

الفلسفية المناهضة والمنتقدة للدين بالأسلحة الكلامية التي كانت تلجأ إليها نفسها .

والحق أن الدين هو قبل كل شيء تصديق لما جاء به الكتاب المنزل ، وثقة مطلقة بحامل الرسالة ومبلغها . ولكن هذا التصديق يلتقي بدافع الفطرة لينيرها ، وبمنطق العقل ليتممه ويصححه ، حسب المراحل التي نمثلها في الشكل التالي :



أما الفطرة الساذجة فإنها تقتصر على الدوافع الحيوانية والإحساس البدائي والمعتقدات الجاهلية التي تتمثل في عبادة الأوثان والظواهر الطبيعية .

وأما المرحلة العقلانية فإنها تقتصر على المشاهدة والاختبار والتحليل ، وتبقى مرتبطة بالقاعدة الفطرية لتخدمها ، وقد تؤدي إلى الحضارات العلمانية بما تحمله من شرك وإلحاد وفلسفات مادية دهرية .

وأما المرحلة الدينية فتمتد بالفطرة والعقل معاً إلى الأصول الخلقية الأولى وإلى التسامي المعنوي والعملي إلى ما وراء الحياة الأرضية . وهذا السمو الروحاني لا يمنعها من الارتباط بأصولها العقلانية والفطرية كما نبينه في الشروح التالية :

1 ـ **المرحلة الفطرية** تتمثل في العنصر الطبيعي النشئي الذي يحول العناصر الأرضية إلى كائنات حية ، بما في ذلك الإنسان العاقل .

قد يحاول العقل الإنساني في بحوثه النظرية والتجريبية أن يتعرف على ظروف وكيفيات التسلسل النشئي ، وهذا من دوافعه الفطرية ، ومن متطلبات العقل والدين ﴿**قُلْ سيروا في الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ [العنكبوت 20/29] وقد يصل بمشاهداته واستنباطاته إلى القوانين التي تخضع لها الحياة ، وإلى الخطط التي تتبعها ، ولكنه لا يصل إلى الأسباب الأولى التي ألفت بين العناصر والأخلاط ونظمتها وألهمتها وقد يكتشف نوعاً من الجدلية الطبيعية التي يسير عليها الكون والكائنات . ولكن السر الذي جعل الشروط تتوفر على ظهر الأرض وما حولها من طاقات شعاعية وعناصر هوائية ومائية ومعدنية لتظهر منها الحياة وتستقر وتتنوع وتنتشر ، هذا ما لا يصل إليه الإنسان بمجهره وحسابه وعقله وآلاته .

وما أبسط العقل وما أسخفه حين يعبر قنطرة اللاهوت على ظهر آلاته المصنوعة ، ليتورط في متاهات الظن والتخمين ، ويقتنع بأن سلسلة العجائب التي تضمن الحياة ليست إلا نتيجة لعوامل الصدفة المتتالية ، وذلك حتى إذا أدت تلك العوامل العمياء إلى ظهور العقل البصير . هنا يظهر الفصل بين الغواية والاستبصار وبين الاعتبار والاستكبار .

مهما كان التباعد في المواقف العقائدية فإن حصيلة هذه المرحلة هي وجود الإنسان في صورته البشرية وقوامه الجسمي واستعداده العقلي للقيام بوظيفته الوجودية في الأرض .

2 ـ **المرحلة العقلانية** تتمثل في بروز الوعي وملكة العقل التي يتفوق بها الإنسان على غيره من المخلوقات ، وتتميز ملكة العقل بأنها

تنمو بالعلم المكتسب عن طريق المشاهدة والتجربة والنقل بوسائل اللغة والكتابة والآثار التي تتراكم بها المعارف وتنتشر وتتطور .

لكن معجزة العقل ومقدرة العلم لا تتوصلان إلى إعجاز العقل نفسه ، ولا إلى هدايته إذا تغلبت على ذلك العقل دوافع الفطرة الحيوانية التي ترفض التطلع إلى ما وراء المحسوسات والمشهودات . فمن العلماء العقلانيين من يعتقد أن ظاهرة العقل ليست إلا نوعاً من الحركة البالغة التعقد التي هي من صفات المادة ، ويستدل على ذلك بالتفاعلات الكيمائية والكهربائية التي تحدث داخل الخلايا والأعضاء العصبية .

إلا أن ظاهرة العقل ولو كانت تنبثق من قاعدتها العضوية التي تتمثل في خلايا المخ بما يجري فيها من ماء وهواء وملوح وتيارات كهربائية لا يخضع لجدلية الطبيعة العضوية بل يتحرر منها ويعرج سبيله إلى معرفة الكون وقوانين الكون ، إلى أن يقف خاسئاً حسيراً عند حدود الغيب ، ويناجي ذلك الغيب بلغة الأرض ووسائل العقل ، ولكنه مهما نفذ في أقطار الفضاء وجزئيات الذرى وجنات الخلايا يشاهد منطقية الأشياء التي تفترض منطقية الأسباب وتفترض الحكمة القاهرة التي تدبر نظامه وحركاته وتطوراته ، ولكن دور العقل ينتهي هنا مثل ما كان في حق إبراهيم الخليل وهو يتدبر في ملكوت السماء ، وإذا بالعقل يعترف بعجزه ويقول : ﴿ **لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** ﴾ [الأنعام 6/77] وهل ينبئه عن الغيب إلا علام الغيوب ؟

يتطلع العقل إلى ما وراء الأشياء من حكمة وغايات ، ويبحث عن أسرار البدايات والنهايات . والعقل الإنساني لا يتقهقر أمام التحدي ، حتى إذا كان ذلك التحدي من وراء الحقائق المحسوسة والمعقولة . ذلك التحدي هو سؤال فلسفي محض : من أين هذا العالم ، وكيف نشأ ، ولماذا هو موجود ؟ من أين الإنسان ، وكيف نشأ ، ولماذا ؟ تجرأ عقل

الإنسان ، وضرب أصوار الغيب مثله كمثل الوعل الذي يضرب الصخرة بقرنيه

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهت قرنها الوعل

لماذا هذا الوهن ؟ لأن الوعل الذي أراد أن يكسر الحجر أو يزيله من مكانه ظن أن قرنه أصلب من الصخر ، ولو كان عنده شيء من الحكمة لصعد من فوقه أو انحرف عنه . هكذا عقل الإنسان لا يملك حيلة أمام أصوار الغيب ، ومهما كان قرعه لجداره فإنه لا يستطيع أن يظهره ولا يستطيع له نقباً . . . إلى أن يناجيه من وراء الأصوار صوت لا تدركه الأبصار يخبره عما وراء الأصوار ويهديه إلى كيفية العبور وإضاءة الأبصار .

3 ـ المرحلة الثالثة هي مرحلة الوحي النبوي الذي يلبي تطلع النفس الإنسانية إلى الحقائق الخفية التي يكتمل بها ، وفيها وجوده وكيانه وعقله ، ويطمئن فيها ضميره ويتحرر من ضيق المكان وقصر الزمان وحيرة الأذهان .

يأتي الدين بنوع من المعرفة (النقلية) التي لا تدركها العقول البشرية ؛ لأنها لا تخضع لمقاييس المشاهدة والتحليل والاختبار ، ومنزلتها بالنسبة إلى العقل كمنزلة العقل بالنسبة إلى الفطرة الحيوانية . وهذا النوع من المعرفة لا يقتصر على البرهان الجدلي ولا يقتنع به لا نفياً ولا تثبيتاً . قد يحجم عنه العالم الطبيعي ويعتبره من قبيل الخيال ، كما نجده في الجدلية الطبيعية الماركسية ، وكما وجد من قبل عند الدهريين الذين يشير إليهم القرآن ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال 31/8] . ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية 24/45] .

ولكن الجدلية المادية الحديثة أعطت للاعتقاد الديني تفسيراً سلبياً حيث تدعي أن الإنسان الضعيف البئيس في تطلعه اليائس لوجود أفضل ولبقاء أطول ولسعادة أصفى وأسمى يتصور هذا النوع الخيالي من الوجود والقدرة والسعادة والفضيلة وينسبه إلى عالم الأرواح والقوات الغيبية الوهمية .

بقي على الجدلية المادية أن تفسر الدافع الوجداني إلى تصور الكائن الأكمل ، وإلى الشعور بقوة خالقة تهيمن على العالم ، وكيف يتشوق إلى هذه القوة خوفاً منها وطمعاً فيها ، لا لتخلده في الحياة الدنيا ، ولكن لترفعه إلى مستوى العظمة والخلود .

مهما كانت الادعاءات المادية واستكبار الملحدين عن الحقيقة الدينية فإنها لا تطفىء نور الإيمان ولا تزعزع عقيدة المؤمن . فالمسلم لا يعتبر الإسلام استسلاماً لقوة وهمية يفوض لها أمره ويتجرد من فضائله الخلقية ليكسوها بها ، بل إنه بالعكس يعتبر الإيمان معراجاً يفتح أمامه آفاق السمو والفضيلة والعلم والكمال ، وأما التواضع الذي يتميز به المؤمن في تقدير ذاته وفي عبادته لله والخنوع له ، فذلك هو البعد الرافع الذي يصله بخالق الكون عقيدة وعلماً وعملاً .

قد يكون الدين عند بعض الجهلة الخاملين مبرراً أو داعياً للتكاسل والتواكل واحتقار الذات والتقاعس أمام الجهد والعلم والعمل ، ولكن هذا النوع من التدين لا يعبر إلا عن مظهر مغفل بعيد عن القيم الأخلاقية والأمانة العظيمة التي تحملها الإنسان ليكون سيد الأرض والمسؤول المستخلف عليها .

إن استكبار الإنسان المتحضر في المجتمع المادي الحديث نتيجة لنزعتين متناقضتين :

نزعة فطرية شهوانية تدعو إلى الوضع الحيواني في تلبية الدوافع الغريزية والترفيهية والانتفاعية وذلك ما تعبر عنه الآية ﴿ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق 96/6-7] والآية ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ . . .** ﴾ [آل عمران 3/14] .

ونزعة علمانية جعلت الإنسان يكتشف طاقاته العلمية والتقنية ، ويظن أنه لا حدود لعلمه وسلطانه ، وزاده في الكبرياء ما أنجزه من فتوحات نظرية وعملية في عالم الذرة والحياة والآليات والفضاء . ذلك ما نجده في الفلسفات العلمانية السائدة في الحضارة الاستهلاكية المادية الحديثة .

إن الدين الإسلامي كما رأيناه يلبي تطلعات النفس البشرية في مستوياتها الثلاث الفطرية والعقلية والروحية . والحقيقة التي يموج فيها الناس في حياتهم الأرضية لا تنفصل عن حقيقة المآل الأخير الذي يكتمل به العقل ويطمئن به الضمير ويمتد به الوجود ويرتقي .

أما قصور العقل في تعرضه لمسائل الغيب فمثله كمن يقدر مساحات الفضاء بمقاييس المساحات الأرضية . كما أن الفيزياء والكيمياء قد تفسر التفاعلات والتحولات التي تحدث في تراكيب الخلايا والأمزجة ، ولكنها لا تفسر الظواهر النفسية كالحب والكراهية والرحمة والبخل والشجاعة والجبن .

وإذا أصر العقل على استعمال المقاييس الموضوعية والجدلية ليحكم على ما وراء المعقولات ، فإن ذلك الحكم لا يحمل إلا صوراً من عالم الدنيا وطبائع الإنسان لا تنطبق على حقيقة الخالق والبعث والملائكة والجنة والنار ، وإنما تلبس تلك الحقائق ملابس البشر

النفسانية والثقافية والحضارية ، فإذا بها تعكس مطامحه ومتاعبه وتخوفاته وآماله .

ومن أجـل ذلك القصـور الإنسـاني في تصـوره للحقـائق الغيبيـة تختلف المذاهب الدينية في الرؤية رغم وحدة أصولها الروحية باختلاف النزعات البشرية والتنوعات الحضارية والمستويات الثقـافية والتنـاقضات المصلحية والملابسات الذهنية .

3 ـ علم الله وعلم الإنسان

إن الوحدة الأساسية التي تربط في الدين بين الخالق والمخلوق ، وبين وجود الكائنات والهدف الأزلي الذي خلقت من أجله تمتد إلى الوحدة بين علم الله الذي وسع كل شيء وعلم الإنسان الذي هو قدرة إدراكية وإبداعية جعلها الله في الإنسان تكريماً وتفضيلاً وتكليفاً ، لأن الله هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم .

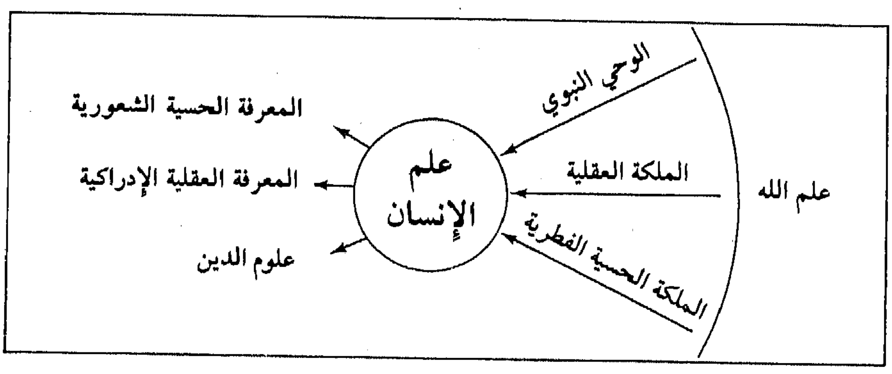
ولكن هذه الوحدة المبدئية بين علم الله المطلق والعلم الذي أعطاه للإنسان لا ينفي بل يقتضي مراتب ومستويات ومجالات ودرجات تعبر عن نسبية علم الإنسان في حدوده ومجالاته النظرية والعملية .

علم الله يتجلى في الكون كله كما يتجلى في طبيعة الإنسان على ثلاثة مستويات :

ـ الملكة الاستعدادية الكامنة في فطرة الإنسان الشعورية والحسية .

ـ الملكة المكتسبة التي تظهر في الإدراك التحليلي والعملي :

ـ رصيد الوحي النبوي وما يحمله من أنباء غيبية وتعاليم عملية .



أما التناقضات التي يمكن أن تحول بين علوم الدين والعلوم الموضوعية فإنها نتيجة لذلك التفاوت الشاسع بين علم الله المطلق وعلم الإنسان المحدود ، ويعبر عن خيبة العقل البشري في محاولته لمعرفة الحقائق الأولى ، وعن الاختلاط بين منهجين مختلفين أساساً ، هما منهج العقل في المحسوسات ومنهج الوعي في الغيبيات .

بين هذين المنهجين لا يوجد تعارض مبدئي ولا تصالح غرضي ، ولكنما يوجد تواصل وتكامل كما سنبينه من بعد .

وإذا كان من حق العلم في مفهومه العقلاني أن ينتقد أو يحيط نظريات فلسفية قامت على معطيات كاذبة ، فإنه كذلك في تطوره المستمر قد يكذب أو يتجاوز نظريات العلم نفسه كما نجده في أدق العلوم الطبيعية ، بحيث أن الاكتشافات الحديثة تنسخ الاكتشافات السابقة إما تكذيباً وإما تعمقاً في تفاصيلها ، وهذا لا ينقص من قيمة العلم ولا من صلاحية المناهج التي يسير عليها . ولكنه ينبهنا إلى أن المعطيات العلمية في زمن ما أو في ظرف ما ليست بالقول الفصل حتى في ميادينها الخاصة ، فكيف يكون لها ذلك في تحليل الظواهر النفسية المعقدة التي تحدث في ضمير الإنسان ، وبالأحرى في اقتفاء الغيبيات التي تفلت عن مقاييس المشاهدة والتجربة .

كما أن التمييز بين المنهجين لا يمنع من التقاء العلم والدين في ضمير الإنسان ليكتسب كل منهما بُعْداً جديداً ، حيث ينطبق كل منهما على الآخر ، كما تنطبق الألوان في الطيف الشمسي ، نور على نور ، نور العقل ونور الإيمان ، بحيث أن أي اكتشاف علمي أو حقيقة طبيعية يصل إليها العقل إلا وتندمج في النظرة الدينية فيزيدها اتساعاً في اليقين وفعالية في التطبيق ، كما أن النظرة الدينية للوجود تعطي بدورها للاكتشافات العلمية بعداً يسمو بها إلى وحدة المعرفة وحكمة الكائنات .

وهكذا يحتاج الضمير الديني إلى نوعين من الاستنارة : الاستنارة بالنور الذي يسطع في مصباح العقل ، والاستنارة بالنور الذي أنـزله الله على رسله هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان .

وفي هذا الالتقاء بين الحقـائق التي تصل إلى الضميـر عن طريق الوحي ، والحقائق التي تصل إليه عن طريق المشاهدة والاستنباط يكتمل العلم في نـظرة شاملة واسعـة ، بحيث أن الغيب يستدل بـالمشاهـدة ، والمشاهدة تستدل بالغيب ، كما تعبر عنه الآية ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الْآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ** ﴾ [فصلت 53/41] . فمـا هي خصـائص ومجـالات العلم الإنسـاني داخل تلك الوحدة العقيدية ؟

مجالات خصائص علم الإنسان :

ليس من غرضنا أن نقارن بين ما لا يقارن ، وأن نقيس علم الإنسان بعلم الله ، وإنما نحاول إزالة بعض الالتباسات الذهنية التي تحير عقول النـاس ، وربمـا تؤديهم إلى الشكـوك العقيـديـة ، لا سيمـا إذا كـانت الاكتشـافات العلميـة والتكنلوجية قـد تتعارض مـع المفـاهيم التقليـديـة والتفاسير القديمة في تعرضها لقضايا الكون والحياة والإنسان .

إن المعنى الذي نعطيه لكلمة العلم يختلف بالنسبة للعلم الذي هو صفة من صفات الله الأزلية ، وبالنسبة للعلم الذي يتميز به الإنسان نتيجة للعقل الذي أمده الله به والذي لا يخرج عن نطاق الاستعداديـة الخلقية لذلك العقل ولا عن نطاق العالم المحسوس .

ذلك ما سنفصله في النقاط التالية :

- العلم صفة من صفات الله الأزلية .
- علم الإنسان تحويل من عند الله .

ـ علم الإنسان مجالاته: المعرفة ـ القدرة ـ الحكمة. وخصائصه: النسبية والامتدادية والحدودية.

العلم من صفات الله الأزلية:

علم الله هو العلم المطلق. ونجد تلك الصفة مقرونة في الآيات القرآنية بصفات تفصيلية للعلم، وهي الخبرة والقدرة والحكمة، كما في قوله: ﴿ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحريم 66/3]. ـ ﴿ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم 54/30] ـ ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف 83/12، 100].

1 - 1 ـ العلم الذي هو خبرة يعني أن الله يعلم كل ما هو كائن أو يحدث في الكون من تغيرات وتحولات كما تشير إليه آيات كثيرة:

﴿ يا بُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أَوْ في السَّمَواتِ أَوْ في الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لَطيفٌ خَبيرٌ ﴾ [لقمان 16/31].

﴿ وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ ﴾ [الأنعام 59/6].

﴿ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فيها وَهُوَ الرَّحيمُ الغَفورُ ﴾ [سبأ 2/34].

﴿ يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدورُ ﴾ [غافر 19/40].

2 -1 ـ العلم الذي هو قدرة يعني أن الله هو الخالق لكل ما في الكون من أجرام وأفلاك وطاقات وأرواح وحيوانات وكائنات أخرى لا يعلمها إلا هو.

﴿ وَيَعْلَمُ ما في السَّمَواتَ وَما في الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ [آل عمران 29/3] .

﴿ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾ المائدة 17/5] .

﴿ يَزيدُ في الْخَلْقِ ما يَشاءُ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾ [فاطر 1/35] .

﴿ وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ في السَّمواتِ وَلا في الأَرْضِ إنَّهُ كانَ عَليماً قَديراً ﴾ [فاطر 44/35] .

3 - 1 ـ العلم الذي هو حكمة يعني أن الله لم يخلق الأشياء عبثاً ، وإنما قدرها وهداها للوظائف التي حددها لها في الزمان والمكان ، وتشمل تلك الحكمة كل المخلوقات الكبيرة والصغيرة في حدوثها وتحولاتها ونهاياتها ، كما تشمل وجود الإنسان في الأرض ، والخلافة التي وكل بها والتكاليف التي أمر بها ، كما نجد ذلك في رده على تساؤلات الملائكة حين أخبروا بخلق آدم واستخلافه في الأرض ﴿ قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلَّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيمُ ﴾ [البقرة 32/2] . ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إلَيْنا لا تُرْجَعونَ ﴾ [المؤمنون 115/23] .

علم الإنسان تحويل من عند الله

كل ما يملكه الإنسان من علم في معانيه البشرية وفي اختصاصاته وهي المعرفة والقدرة والحكمة هو من أمر الله وفضله .

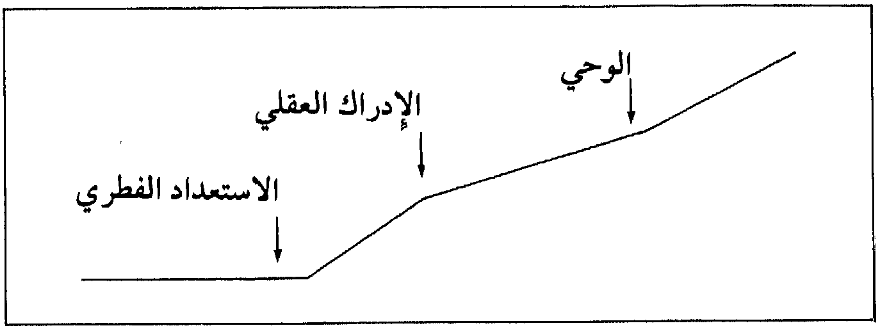
وكما رأيناه فإن علم الإنسان نتيجة لثلاثة أنواع من الإمدادات الإلهية .

ـ **الاستعـداد الخلقي** الذي يتمثـل في الحواس والجهـاز العصبي الـذي يسجل المعـطيات الحسيـة ويحولهـا إلى شعور فـطري ضميـري وعملي .

ــ **الإدراك العقلي** الذي يحلل معطيات الحواس ، ويستنبط وسائل جديدة لتمديد تلك المعطيات ، وتدبير سلوكه الفكري والعملي .

ــ **الوحي المنزل** الذي يكمل معـطيات الحـواس ، واستنتاجـات العقل بمعطيات الغيب التي تحملها الرسالة النبوية .

والشكل التالي يمثل مستويات الاكتمال العلمي في الإنسان .



ويظهر ذلـك الاكتمال في الميـادين العلمية الثلاثة التي ذكرنـاها وتشير إليها الآيات الكثيرة .

1 - 2 - ميدان المعرفة

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق 4/96 - 5] .

﴿ بَـلْ هُـوَ آيـاتٌ بَيِّنَـاتٌ في صُـدورِ الَّـذينَ أُوتـوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت 49/29] .

2 - 2 - ميدان القدرة

ألهم الله الإنسـان لمعرفـة الكون واستكشـاف قوانينـه واستخدام

طاقاته فيما يتصف به العلم من صناعات واختراعات يرجع فضلها لخالقها ، كما نجده في الآيات التي تنسب ما صنعه الإنسان بيديه إلى القدرة الإلهية .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلْكِ الْمَشْحونِ ، وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس 41/36 - 42] .

3 - 2 - ميدان الحكمة

وهو تدبير السلوك طبقاً للمقاصد والغايات .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة 231/2] .

﴿ يُؤْتي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً ﴾ [البقرة 269/2] .

علم الإنسان مجالاته وخصائصه العامة

يتميز علم الإنسان في مجالاته الثلاثة (المعرفة ـ القدرة ـ الحكمة) . بصفات تحدد إمكانياته وهي : النسبية ـ التوسعية ـ المحدودية .

ذلك ما نجده في الميادين الثلاثة :

في مجالات المعرفة : تتميز المعرفة الإنسانية بخصائصها الثلاث

1 - 3 - النسبية

لأنه لا يعرف من الأشياء إلا بقدر ما تمكنه استعداداته من حيث تركيب أجهزته الحسية والعصبية ومن حيث الآلات الصناعية التي أنجزها لمعرفة الكون واستخدام الطاقات الكونية ، ولكن ذلك العلم لا يصل إلى الكليات في تقدير نظام الكون في كل علاقاته ومساحاته وتحولاته ، ولا إلى

الباطنيات حتى في عالم الشهادة ، ويعني ذلك أسرار الكائنات في حدوثها وغاياتها . ولتلك النسبية تشير الآية : ﴿ **وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَليلاً**﴾ [الإسراء 85/17] .

تظهر تلك النسبية في الأمثلة التالية :

1 - جهل الغايات الباطنة التي تفسر أو تبرر الحوادث التي تقع في الكون أو في عالم الإنسان وتشير إليها قصة موسى في محاولته اليائسة لمعرفة الأسرار : ﴿ **وَإذْ قالَ موسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً** ﴾ [الكهف 60/18] . وتبين لنا القصة أن بغية موسى هو أن يجمع بين علم الظاهر والباطن : ﴿ **فَوَجدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً ، قالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً ، قالَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾ [الكهف 18 /65 - 68] . ثم تظهر بقية القصة أن موسى وهو طالب العلم لم يكن في استعداد نفساني ولا عقلاني ولا أخلاقي ليتقبل الأحداث التي تخالف الفطرة والقيم السائدة وهي خرق سفينة بغير حق ، وقتل طفل بريء ، وترميم جدار من دون أجر عند قوم لئام ، ثم يتخلى موسى مرغماً عن علم ليس الإنسان من أهله ويقتنع بأن وراء الأحداث أسراراً وحكمة باطنة لا ينفذ إليها العقل البشري المحدود .

2 - المثال الثاني في نسبية المعرفة نأخذه من علم الطبيعة نفسها ، حيث أن المعرفة لا تصل عملياً ولا نظرياً إلى حقائق الأشياء سواء في الكليات كصورة العالم وحدوده وتطوراته ، أو في الجزئيات كمعرفة أصول الطاقة والمادة . أما الحواس فإنها لا تصل إلى حقيقة الأشياء لنسبية قدرتها الطبيعية كرؤية الأشياء البعيدة . وأما العقل بآلاته الحسابية

والبصرية فإنه كذلك يتيه في نسبية المكاييل المساحية والزمنية، وحينذاك يلجأ للنظريات التي لا تضمن الحقيقة .

2 - 3 - التوسع :

أعطى الله للعقل الإنساني إمكانيات عرفانية وإبداعية هي أكبر معجزة يتعرض لها العقل نفسه حين يقارن بين الآلة المفكرة وهي المخ المخزون في جمجمة الدماغ وبين ما يمكن لذلك المخ أن يحيط به علماً وأن ينجزه عملاً .

إمكانية التوسع تشير إليها الآية : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ [طه 114/20] . ويحصل ذلك التوسع بفضل ثلاث قوات يحدث بها العلم ويكتمل وينمو :

ـ **القوة الاستعدادية** التي تكمن في الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ والتي يفوق عددها 30 مليار خلية ، كل خلية منها تتصل بعدد كبير من الخلايا بحيث أن المخ يمثل آلة عضوية هائلة المفعول والإمكانيات الاتصالية والتسجيلية والتحليلية والتدبيرية ، أعظم وأدق وأقوى آلاف المرات من أي آلة الكترونية صنعها الإنسان . ولا زال العقل باهتاً أمام الآلة الرطبة المشحمة التي تولده فكيف لا يبهت أمام القوة الصمدية التي صنعت ذلك العضو وفتحت له عالم الوعي والإدراك والإبداع .

ـ **القوة العقلية** هي الظاهرة الإدراكية التي جعلها الله في الإنسان فملكت أمرها ونفذت إلى عالم المعرفة بحثاً ومشاهدةً وحساً واختباراً ونقلاً وابتكاراً . ثم تجمعت العقول فأبدعت الكلام والكتابة والقراءة والصناعة ، وكونت الحضارات الصغيرة والكبيرة والغابرة والشهيرة ، وتخصصت العلوم والصناعات ولا زالت تمتد وتتوسع وتبدع وتكشف عن أسرار الكون وتسخر الطاقات الهائلة التي يحملها.

ـ **القوة الروحية** تكمن في ظاهرة الإلهام والـوحي النبوي ، وهي التي تعطي للعقل بُعْدَيْنِ لا يمتلكهما بخاصيته الخلقية ؛ البُعْد الإيماني الذي يصله بخالقه ويربطه بالغاية الوجودية التي خلق من أجلها ويسير من خلفها . والبعد الأخلاقي الذي يوجهه في تصرفه طبقـاً للوظيفة الكـونية التي كلف الله بها الإنسان في الأرض .

هذان البعدان لا يكتسبان عن فطرة أو معرفة عقلانية ، وإنمـا عن طريق الكتاب المنزل والاهتداء الديني الذي يسمـو به العقـل إلى درجة الحكمة ، وذلك هو المقصود من الرسالة الدينية : ﴿ **هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** . . . ﴾ [الجمعة 2/62] .

3 - 3 - المحدودية :

وهي أن العقل الإنساني مهما كان تفوقه وتوسعه في معرفة القوانين الكونية وفي تسخير طاقاته ، فإنه لا يتعدى حدود الغيب : ﴿ **وَلاَ يُحيطونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِما شاءَ** ﴾ [البقرة 255/2] .

تشير هذه الآية نفسها إلى الاستحالة وإلى الاستثناء :

أما الاستحالة فتعني أن الله له ملك السموات والأرض ، وأنه أحاط بكل شيءٍ علماً وقـدرة وحكمة : ﴿ **وَعِنْدَهُ مفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ** . . . ﴾ [الأنعام 59/6] وأمـا الاستثناء فيعني أن الله : ﴿ **عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق 5/96] . وعلمه من أنباء الغيب : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** ﴾ [آل عمران 44/3] .

ولكن ذلك الاستثناء نفسه لا يصل إلى الغيبيات الكبرى مثل ذات

الله وسر إرادته وحدوث الساعة ومصير الكون . ذلك ما نجده في الآيات الكثيرة :

ـ استحالة رؤية ومعرفة ذاته : ﴿ وَلَمّا جاءَ موسى لِميقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قال رَبِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ قال لَنْ تَراني وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَراني فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنينَ﴾ [الأعراف 143/7] .

ـ استحالة الاتصال المباشر مع الله : ﴿ وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيوحي بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكيمٌ ﴾ [الشورى 51/42] .

ـ استحالة معرفة غيب الساعة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ ﴾ [لقمان 34/31] . ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها ، فيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها . . . ﴾ [النازعات 42/79 - 43] .

ـ استحالة معرفة الحقائق الغيبية في الزمان والمكان : اليوم الآخر ـ الملائكة ـ الكتاب ـ العرش . وكل أمور الآخرة أو أحداث المستقبل وأحداث الدهور السالفة إلا بنسبة صغيرة يصل إليها العقل عن طريق الاستقراء وبحث الآثار .

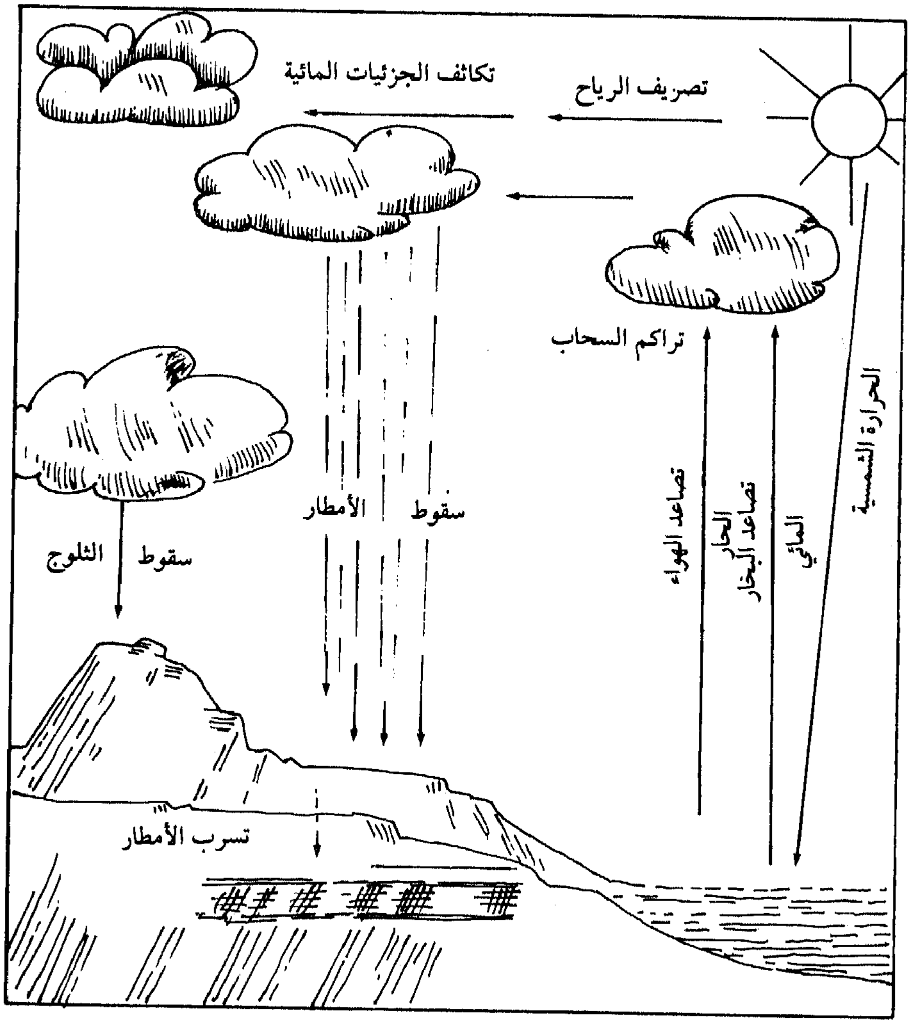
ملاحظة حول الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحامِ وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خبيرٌ ﴾ [لقمان 34/31]

لقد رأينا بعض الناس حيارى متشككين في معنى الآية أو متقيدين

بمعناها الضيق الذي لا يترك للإنسان أي شعاع من العلم يصل به إلى الأشياء التي تحيط به . وما ذلك التشكك وما ذلك الانحصار في المعاني إلا نتيجة الالتباس بين معنى العلم الذي هو من صفات الله الأزلية والمطلقة ، وعلم الإنسان كما رأيناه في نسبيته وحدوده وتوسعه بحيث لا يمكن فهم هذه الآية إلا باعتبار تلك المقاييس التي تجعل علم الإنسان في حدوده الخاصة وهكذا تتضح المعاني :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ ﴾ يدخل علم الساعة في الغيبيات الكبرى التي لا ينفذ إليها عقل الإنسان ولا حتى الأنبياء . ولكن هل هذا يمنع أن الله يخبرنا بحقيقة الساعة وباقتراب أجلها وببعض شروطها وصفاتها ؟

﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ هذا معناه أن القدرة والحكمة والرحمة الإلهية وضعت السنن الطبيعية التي تتفاعل بها العناصر الكونية وتتحول وتتغير كما نعلمه من ظاهرة المطر : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَترى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ** ﴾ [النور 43/24] . هل تمنع هذه القدرة المطلقة أن يطلع الإنسان على العوامل الفيزية التي تخضع لها ظاهرة المطر ، وكيفيات مراحلها ، كما نبينه في دائرة الماء وتداخل الطاقات الكونية المصرفة لها ؟



وهل تمنع هذه القدرة أن يتابع الإنسان بآلات المراقبة الجويةمراكز الضغط وتراكم السحب واتجاه الرياح التي تسوقها ، وأن يتوقع من تلك المعطيات متى وأين تسقط الأمطار ؟ كل هذا لا يرفضه الإيمان المتين ولا العقل السليم ما دامت المعاني في حدودها البشرية وهي النسبية والتوسعية والمحدودية . أما النسبية فتعني أن الإنسان لا يصل إلى البدايات ، وهي الحكمة التي تخلق الظواهر ، وتنسق بينها وتسيرها طبقاً لغاياتها الأزلية . وأما التوسعية فهي أن الإنسان يطور وسائله العلمية التي

تبحث في ظواهر الطبيعة ويدرس قوانينها ، ولذلك يمكن له اليوم أن يقدر ـ تقديراً نسبياً لأنه لا يحيط بالمعطيات كلها ـ تغير الأحوال الجوية لساعات أو لأيام أو لأسابيع . وأما المحدودية فإن الإنسان لا يصل إلى الحكمة التي تقدر وتدبر الغايات والطاقات وتسير المكونات كل إلى مكان محدود وأجل مسمى .

﴿ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ : يعني ذلك أن الله يعلم كل شيء عن المخلوق الذي ينشأ في الرحم إجمالاً وتفصيلاً وبداية ومصيراً ، معرفة القدرة الخالقة والحكمة المدبرة التي جعلت في النطفة التي لا تراها العين طاقة خلقية مصورة ومنظمة ومنمية ، تأخذ من الأخلاط والعناصر التي تنفذ إليها من دم الأم فتصنع بها وبإذن خالقها إنساناً سوياً عبر أطوار خلقية تبني أعضاءه وتنفخ روحه وتميز خاصيته الجنسية والتركيبية . تلك هي القصة العجيبة التي توردها الآية : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون 23/12 - 14] . وهل تمنع هذه القدرة العلمية والخلقية التي يختص بها الله أن يطلع الإنسان بما أعطاه الله من إدراك ووسائل علمية عن بعض التفاصيل التشريحية التي ليست من الغيب ، وإنما هي من عالم الشهادة ما دام البصر ينفذ إليها إما مباشرة وإما بوسائل الاستكشاف الطبية . لقد يسقط الجنين في طور من أطواره فيكتشف الإنسان تراكيبه وتطوراته ويجمعها في علم الجنين ، وقد ينفذ داخل الرحم بوسائله الآلية والبصرية ، وقد يستقصي حتى جزئيات الخلايا المتساقطة من جسمه ويجد فيها خصائصه الذاتية ، وحتى استعداديته الجنسية والنسلية ، إن هذا ليس من ميادين الغيب ، وإنما هو اطلاع حسي وعقلي على أشياء محسوسة ومكشوفة . وهذا الاطلاع

يخضع لنفس المقاييس البشرية وهي النسبية والتوسعية والمحدودية . أما النسبية فلأن الإنسان لا يكتشف من الأشياء إلا ما ظهر منها بحواسه وآلاته في المكان المحدود والزمان المحدود ، ولا يصل إلى الأسرار والسرائر وأنباء المصير . وأما التوسعية فهو أن الوسائل العلمية تزداد دقة وفعالية تجعلها تنفذ إلى صغريات الأشياء داخل الجسم وداخل الخلايا وداخل الجزئيات النووية . وأما المحدودية فهي أن العلم رغم تطوره وتوسعه لا يتعدى حدود المشاهدة والاستقراء العقلاني .

﴿ وَمَا تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً ﴾ : ويعني ذلك أن الله وحده يعلم ما يكسبه الإنسان من مال وقوة وجاه وسلطة وعلم ونفوذ في ماضيه وحاضره ومستقبله . واختصت الآية من الزمان (الغد) لأنه أصعب على الإنسان أن يتوقعه بدقة وحقيقة فقد يستغني أو يفتقر أو تفتر قوته أو تنقلب مكانته في لحظات قليلة من الزمان ، ولكن هل هذا يمنع أن الإنسان يتوقع مداخيل أو محاصيل يترجاها من عمله أو تجارته ؟ إن هذا التوقع يخضع للمقاييس البشرية : النسبية نفسها لأن حسابه يعتمد على المعطيات التي بين يديه ، وقد تكون تلك المعطيات ناقصة أو مزورة أو مشوهة . والتوسعية نفسها لأن الإنسان قد يستعين بآلات الاتصال الدقيقة والسريعة ليجمع أكبر كمية من المعطيات التي يعتمد عليها . فيعلم مثلاً أنه سيحول له مبلغ من المال عن طريق الصك الهاتفي أو تحويل مصرفي كما يمكن له في لحظة قصيرة أن يعلم ما لديه من بضائع تعرض على سوق دولي بعيد ، وما هي الأسعار السائدة ، وكل هذا لا يخرج عن نطاق المشاهدة والمحاسبة . والمحدودية هي أن معرفة الإنسان لما يملكه أو يخسره في المستقبل لا يحيط بالأحداث الكونية والغايات الغيبية التي قد تغير الأوضاع وتقلب المعطيات وتراقب النوايا ، كما أن الإنسان في تحسبه وتعداده لما يملك أو سيملك قد يغفل عن قيمة ذلك الملك في ميزان الخالق وفي زمان لا ينفع فيه مال ولا بنون .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ : وهذا يعني أن الله يعلم ويقدر لكل نفس أجلهـا ومآلهـا من قبل أن يبـرأها . ولكن هـذا لا يمنع الإنسان من التقديرات والتوقعات التي يستعملها في حدود مقاييس تجربته ومعطياته العلمية . فإنها نسبية مثلما أن يتوقع أن فلاناً الـذي حكم عليه بـالاعدام سيشنق في اليـوم الفـلاني في السجن الفـلاني على السـاعـة الفلانية ذلـك ما تقتضيـه المعطيـات التي أخبرنـا بها ، وقـد تكون تلك المعطيات غير كاملة ، وقد تحدث معطيات أخـرى تغير الحكم أو تغيـر المكان . وأما إمكان التوسع في معرفة الموت فالطب الحديث قد يعطينا أمثلة كثيرة عن أحوال مرضية نتوقع تطورها ونهـايتها . وأمـا المحدوديـة فتعني أنه ليس في إمكان أي إنسان أن يحيط بكل المعطيات المشهـودة والغيبية التي لا يملك مفاتحهـا إلا الله ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمـوات وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِـكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ 3/34] .

القـــدرة :

خلق الله الإنسان في الأرض ومن الأرض واستأمنه ليقوم بوظيفتين مترابطتين ومتكاملتين هما :

الـعبــادة : ﴿ وَمَـا خَـلَقْـتُ الْـجِـنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِـيَـعْـبُـدُونَ ﴾ [الذاريات 56/51] .

الخـلافة الأرضيـة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّـكَ لِلْمَـلاَئِكَـةِ إِنِّي جـاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة 30/2] .

وإذا كانت العبادة تجمع بين الضمير الديني (وهو الإيمان بالله) ، والسلوك الخلقي (وهو الإسلام أو طاعة الله) ، فـإن الخلافـة الأرضية

تقتضي بين الإنسان والأرض المعمورة علاقة استعدادية متبادلة تجمع بين تسخير الأرض وتأهيل الإنسان لاستعمارها .

أمـا تسخير الأرض فهـو تهيئتها وتـذليلها لـلإنسان كمـا تعبر عنـه الآيات :

﴿ هُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشوا في مَنَـاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك 67/15] .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمَاواتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ. . . ﴾ [الجاثية 45/13] .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّمَاءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ . . . ﴾ [البقرة 2/22] .

﴿ أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مـا في السَّمَواتِ وَمَـا في الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان 31/20] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْـنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ ، وَآتـاكُمْ مِنْ كُلِّ مـا سَأَلْتُمُـوهُ وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَـةَ اللّهِ لا تُحْصُـوهـا . . . ﴾ [إبراهيم 14/33 -34] .

تسخير الأرض يعني أن الله جعل في متناول الإنسان وخدمته كل العناصر الموجودة فيها من طاقة شعاعية وعناصر هوائيـة ومائيـة ومعدنيـة ونباتية وحيوانية في اختلاف أحوالها الخامة والمركبة والمحولة والكامنة . أما الخامة فمثل المعادن البسيطة ، وأما المركبـة فمثل الملوح المعـدنية والماء والهواء ، وأما المحولة فمثل المواد العضوية النباتية والحيوانيـة ، وأما الكامنة فمثل الطاقة الحرارية والكهربائية .

وأما **تأهيـل الإنسان** فـذلك في صفـاته الخلقيـة وملكاتـه الذهنيـة

والتعبيرية والإبداعية :

﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين 4/95] .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها . . ﴾ [البقرة 31/2] .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن 3/55 -4] .

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . . . ﴾ [العلق 4/96 -5] .

نتيجة التسخير الكوني والتأهيل الإنساني هو أن الإنسان امتلك القدرة الفاعلة التي تجعله يتفوق على الكائنات الطبيعية ويستخدمها في صالحه المعاشي والترفيهي والحضاري .

خصائص القدرة الإنسانية :

تتميز القدرة الإنسانية الفاعلة والمبدعة بنفس الصفات التي شرحناها في ميدان المعرفة وهي : النسبية والامتدادية والمحدودية .

النسبية : هي أن الإنسان مهما تمكن في المهارة الصناعية والإتقان التكنولوجي فإن قدرته محدودة بقدر ما يملكه من معرفة عملية ، وبقدر تسخير الكون لعمله وإرادته . وتتمثل تلك القدرة في سلطان العلم الإدراكي والعملي الذي يخوله الله للإنسان ، كما يتمثل في انقياد الطاقة الكونية المسخرة له . كما تعبر عنه الآية : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن 33/55] .

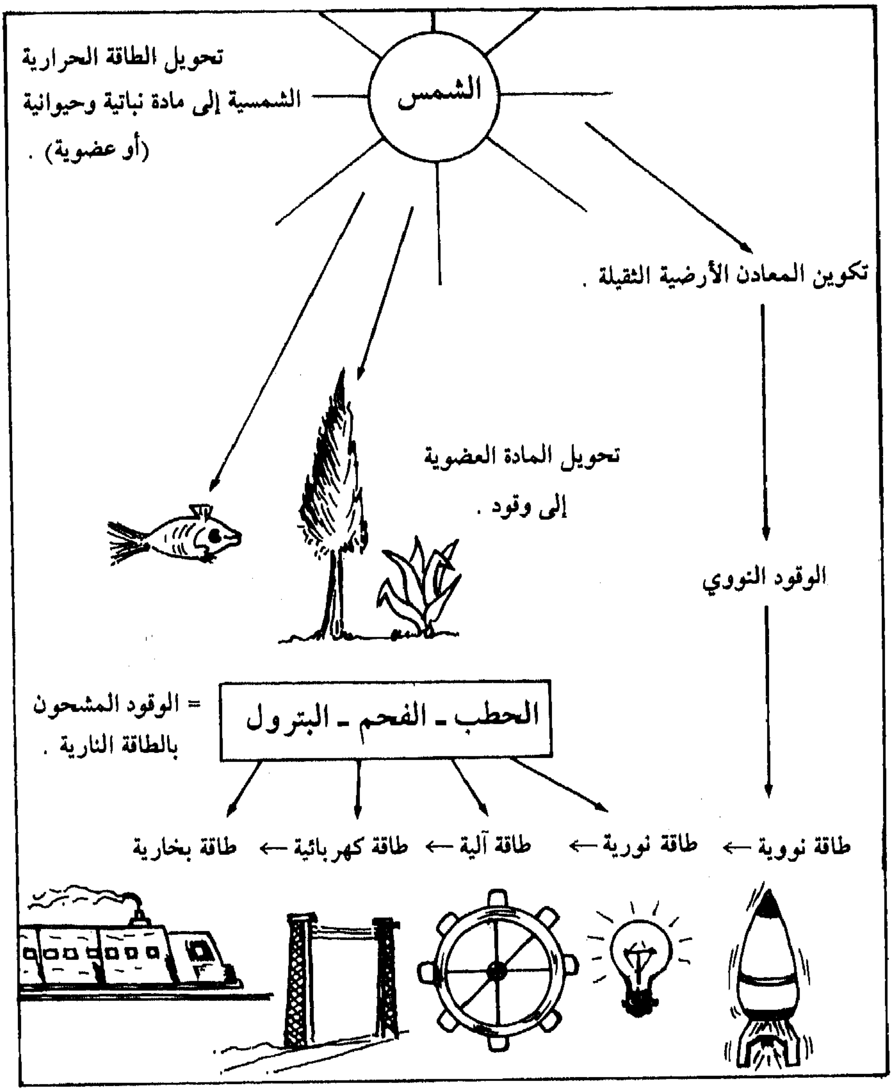
والنسبية معناها أن القدرة الإنسانية ليست قدرته الذاتية ، وإنما هي القدرة التي جعلها الله فيه بأمر منه وتفويض ، كما تشير إليه الآيات : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس 41/36 -42] . وتعني هذه الآية أن صنع الفلك الذي هو

بـالمشاهـدة صنع إنسـاني لم يتحقق إلا بإلهـام من الله وسلطان منـه . المعنى نفسه نجده في الآية : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء 80/21] .

كمـا أن النسبية تعني أن القـدرة التي يملكهـا الإنسـان في صنـع الآلات . وتحويل الطاقات واستخدامها لا يغير القوانين التي جعلها الله في الكون ، وإنما تذللها بقدر ما سخرها الله له كما في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّـارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَـأْتُمْ شَجَـرَتَهَـا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُـونَ ﴾ [الـواقعـة 72/56] .

إن استخدام القوة النارية الكامنة في الحـطب أو في الفحم أو في البترول ومستخرجاته وتحويلها إلى طاقة كهربائية وبخارية وآلية ونورية لا يعني أن الإنسان أبدعهـا أو خلقها وإنمـا هو اكتشـاف لقوانينهـا والتقاط علمي لعناصرها واستعمال تقني لطبائعها . كما نشرحه في الشكل التالي الـذي يبدأ من الـطاقة الشمسيـة التي سخرهـا الله في الكون ، وينتهي بالطاقة الهائلة التي تخرج الصاروخ الفضائي من جاذبية الأرض .

والملاحظة نفسها تنطبق على الطاقة الـذرية الكـامنة في المعـادن الشعـاعية ، والتي تجمعت في العنـاصر المعـدنية الثقيلة أثنـاء تكوينهـا الأول . وتوصل الإنسان إلى استخراج واستخدام طاقاتها الهائلة .



من القصص القرآنية التي تبين نسبية القدرة الإنسانية قصة سليمان حين قرر نقل عرش ملكة سبأ قبل وصولها إليه .

أما القدرة الإنسانية ـ حتى لو افترضنا وجود آلات النقل السريعة المتوفرة في القرن العشرين فيستحيل عليها نقل العرش في برهة من

الزمان أقصر من التي تسمح بها الوسائل المتوفرة لنقل الملكة من بلدها إلى قصر سليمان ـ .

إلا أن هنالك قدرة هائلة يملكها الجن بما أعطاه الله من قوة يختص بها ، ولكنها لا تزال محدودة في إمكانياتها ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ** . . . ﴾ [النمل 39/27] .

وأما القدرة المطلقة التي هي قدرة الله التي خولها لصاحب العلم الرباني فإنها تأتي بالعرش في لحظة عين ﴿ **قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ [النمل 40/27] .

أما الامتدادية فهي أن قدرة الإنسان العملية والإبداعية ترتقي مع ارتقاء المستوى العلمي والحضاري . فإذا كان الإنسان البدائي يقتصر على التقاط الفواكه والأعشاب المتوفرة في الطبيعة ، أو على أكل الحيوانات التي تقع بين يديه ، فإنه يتعدى من علاقته الطبيعية مع الكون إلى علاقة حضارية ، مع استعمال الجلود والأصواف ، ونحت البيوت واستعمال النار ، وجلب المياه ، وصنع الأسلحة من الحجارة والخشب ، ثم من المعادن ، ثم الاستقرار في الأرض ، وتربية المواشي ، وفلاحة الأعشاب ، وبناء الحصون والقرى ، ثم يتعدى إلى المستوى المدني فيزيد في إتقان الهندسة ، وزخرف المساكن ، وتنويع المأكل والأواني والأثاث ، وتصقيل الأسلحة ، ثم يتعدى إلى المستوى الصناعي ويستخدم الطاقات كالنار والبخار والريح والماء ، ثم الفحم والبترول والكهرباء ، ويصنع الآلات المحولة والناقلة والواصلة في البر والبحر والجو إلى أن يصل إلى ما وصلت إليه الحضارة الصناعية المعاصرة .

وهكذا تتراكم التجارب والمعارف والتقنيات وتخزنها الذاكرة الاجتماعية ، إما نقلاً وإما مشاهدة وإما كتابة وتدريساً ، وإذا سنحت

ظروف الاستقرار الحضاري وأثارتها تحديات المحيط الطبيعي وتنافس المطامح البشرية ، فإن العلوم تتسع وتتعمق وتتنوع ، والصناعات ترتقي وتتخصص ، والحاجة الضرورية تمتد إلى الحاجة الترفيهية والاكتشافات تمهد الاكتشافات .

وهكذا تناقلت الحضارات وتداخلت وتلاحقت ، رغم ضياع الكثير من عبقرياتها واختراعاتها ، ورغم المعاكسات التاريخية ، ورغم الحروب المدمرة والفتن المخربة ، فإن العلوم الطبيعية والرياضية والصناعية والآلية والبصريات والطب توارثتها الأمم . ونشاهد اليوم في جميع أنحاء العالم ، وفي جميع الميادين الدقيقة من الأشياء والظواهر والطاقات الظاهرة والباطنة تقدماً لم تشهده الإنسانية في أي عصر من عصورها السالفة .

توصلت علوم الفلك إلى معرفة الكون في أبعاده الهائلة ، وإلى اكتشاف القوانين التي تسير الأجرام الصغيرة والكبيرة والمجرات البعيدة التي يبلغ بعدها ملايين السنين النورية . وأرست مراكب الفضاء على سطح القمر وأرسلت الصواريخ لاستكشاف الكواكب البعيدة .

واستخرجت الطاقة النووية واستخدمتها في المراكب والأسلحة المدمرة ، حتى جعلتها تهدد وجود الحياة في الأرض .

وبلغ التحكم في علوم الكائنات الدقيقة أن الطب تغلب على الأمراض السارية التي كانت تفتك بالإنسانية كالطاعون والجذام والتفوس والجدري والسل والكوليرا .

وبلغت العلوم البيولوجية أنها اكتشفت دقائق المركبات الجزئية التي تسير نظام الحياة والتوالد والتوارث النوعي داخل الخلايا العضوية والنسلية .

وبلغت العلوم الطبية أنها تمكنت من عمليات نقل الأعضاء وتنشيط الوظائف الحياتية أو تعويضها ، كالقلب والرئة والكلى وتلقيح النطف النسْلية واكتشاف العلل الباطنة عن طريق الأجهزة البصرية والشعاعية المختلفة .

وجمعت من المعلومات العلمية الواسعة رصيداً هائلاً يتزايد في الكمية والكيفية ، ومن المتوقع أن يبلغ في السنوات القريبة مستويات لا يتصورها الإنسان في معرفة الكون واستخدام طاقاته الهائلة .

المحدودية

الصفة الثالثة للقدرة الإنسانية الفاعلة هي أن الإنسان مهما بلغه من تفوق في المعرفة وإتقان في التكنولوجيا ، فإن هنالك حدوداً لا يتعداها وميادين لا ينفذ إليها .

يعني ذلك أن الإنسان سواء في علمه الإدراكي أو العملي يخضع لقوانين الكون وغايات الوجود ، ولا يمكن له أن يغيرها أو يتعداها .

من الآيات التي تلمح إلى محدودية القدرة الإنسانية نذكر قصة إبراهيم مع الملك الحاكم في زمانه ، والذي كان يجادله في قدرة الله ادعاءً واستكباراً .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذي حاجَّ إِبْراهيمَ في رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قال إِبْراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ [البقرة 258/2] .

نستخرج من هذه الآيات بعض القواعد التي تعين حدود القدرة الإنسانية :

أولاً : أن القدرة التي يفتخر بها الحاكم لا يرجع له الفضل فيها ، وإنما هي تفويض من الله ﴿ **أَنْ آتاهُ اللّهُ الْمُلْكَ** ﴾ [البقرة 258/2] .

ثانياً : أن الإحياء والإماتة في التعبير البشري ليس لها المعنى نفسه في حق الله الذي يملك وحده القدرة المطلقة لخلق الحياة من الجماد ونزع الحياة من الكائنات ، أما في المعنى البشري فالإحياء هو الإعفاء ، والإماتة هي الأمر بالقتل .

بعض الادّعاءات العلمانية المغرورة تحاول الاقتناع بأن الإنسان سيصل يوماً ما في تجاربه واختباراته إلى ما وصلت إليه الصدفة في تركيب الجزئيات العضوية ، ومن ذلك إلى خلق خلية حية . وفي ذلك اجتياز وهمي لحدود القدرة البشرية التي لا تملك في نفسها وسيلة ولا حيلة لتحويل المركبات العضوية أو المعدنية إلى كائنات تجمع صفات الحياة ، وهي **الاستقلالية الذاتية** في تحويل الطاقة الكونية (الغذائية والحرارية) ، وفي التكيف مع أحوال البيئة المحيطة ، وفي التصدي للمعاكسات والآفات **والتوالد** وهي قدرتها على صنع كائن حي مماثل لها وحامل لصفاتها ، **والنمو** وهو تصميم المراحل التي يمر عليها الكائن الحي منذ نشأته إلى موته .

ثالثاً : أن الإنسان ليس في قدرته أن يغير نظام الكون والقوانين التي تسير عليها الكائنات ، سواء في جزئياتها النووية الصغرى أو في مجموعاتها الفلكية الكبرى . لا يغير مجرى الشمس أو القمر أو الأرض ، ولا قوانين الجاذبية أو سرعة النور ، وإنما له أن يستكشف تلك القوانين وأن يستخدم تلك الطاقات المسخرة له . مثلاً في إطلاق الصاروخ الفضائي لا بد له أن يتغلب على قوة الجاذبية الأرضية . لذلك يستخدم قوة طبيعية أخرى يجدها في الطاقة النارية الكامنة في الوقود المستعمل ،

حيث يكثف تلك الطاقة ويوجهها حتى تتفوق قوتها الدافعة على جاذبية الأرض .

الحكمة

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [البقرة 269/2] .

إذا حصلت المعرفة وتمكنت القدرة العملية عند الإنسان ، فإن ذلك لا يعطي للعلم قيمته المعنوية سواء من حيث غاياته أو من حيث عواقبه العاجلة والآجلة .

هناك يتدخل البعد الثالث للعلم وهو الحكمة التي تنظر للعلم إدراكاً وتطبيقاً من حيث الغايات التي يسير خلفها .

رأينا أن الغايات تظهر على ثلاثة مستويات :

1) الفطرة الغريزية وما تعبر عنه من دوافع وطموحات معاشية وترفيهية .

2) العقل الذي يتدخل بتقديراته ومقاييسه للتحكم في تلك الدوافع وتلبيتها أو توجيهها .

3) الدين الذي يبين المقاصد ويهدي إليها .

ولما كان العقل بفطرته الخلقية يصل بين الدافع الغريزي والجاذب الروحي فقد يتغلب عليه أحد الأبعاد :

ــ فإما أن تتغلب عليه الدوافع الغريزية ، ويتحول إلى خدمتها لتحقيق السعادة الدنيوية في طابعها الشهواني المادي .

ــ وإما أن يقوم بذاته ويتغلب فيه الطابع العلماني ، فيكون العلم غاية في نفسه ومقياساً لكل شيء كما نجده عند (جاك منود) في قوله : « إن العلم هو مقياس كل شيء» .

ــ وإما أن يتشوق العقل إلى معرفة الأسرار الغيبية والغايات الأولى

كما نجده في الفلسفات المثالية عند بعض اليونانيين (أفلاطون) والديانات الروحية الهندية .
ـ وإما أن يتوجه إلى عنصر الحقيقة الذي يخاطبه عن طريق الوحي الصادق والكتب المنزلة .

إذا اعتبرنا الحكمة هي التطابق العملي بين العلم والأهداف ، وإذا اعتبرنا أن الأهداف الأصلية الأولى تهيمن على الأهداف الثانوية ، فإن ذلك التطابق يقتضي تحديد معنى العلم وتحديد معنى الأهداف النهائية ، وتحديد نوعية الترابط بينهما .

أما حقيقة العلم فكما رأيناها في حق الإنسان ليست مطلقة ، وإنما تتميز بالنسبية والامتدادية والمحدودية ، ولذلك تقتضي الحكمة أن يكون العقل واعياً بإمكانياته وحدوده وتصوره ، وأن لا يقع في الغرور والاستكبار كما هو الحال عند كثير من الدهريين والعلمانيين القدماء والمعاصرين .

وأما حقيقة الأهداف فكما رأيناها تمتد على أربعة مستويات متداخلة ومتكاملة ، وليست الحكمة في إنكار بُعْدٍ من أبعادها ، وإنما وضع كل منها في رتبته ووظيفته . فالغريزة الفطرية هي في خدمة الحياة الحيوانية والعقل يعطي لتلك الفطرة أبعادها الحضارية ولكنه في الوقت نفسه يتطلع إلى الغايات والأبعاد الروحية يستنبطها أو يستوحيها . ونتيجة ذلك التطلع وحسب الاختيار الذي يصل إليه يجعل الأهداف النهائية :

ـ إما في المادية الشهوانية التي تسيطر عليها الغرائز الحيوانية .
ـ أو في الدهرية العلمانية التي تقتصر على معطيات العقل الحسية وتنكر ما وراءها من الغيب .
ـ أو في الاعتقاد الديني الذي يصل الإنسان بخالقه إيماناً واحتساباً .

أما المادية الشهوانية فتجعل أهدافها في تلبية الشهوات الحيوانية ، حتى إذا امتدت تلك الشهوات إلى أبعادها الترفيهية التي تشتمل على اللذة الجنسية والمأكول والمشروب والملبوس والسكن والكسب والسلطة والجاه .

وأما الدهرية العلمانية كما تعبر عنها الأيديولوجيات المادية الحديثة ، فإنها تجعل العقل وسيلة لبلوغ الأهداف المادية ، وتستخرج من مقاييسه قوانين الحياة الفردية والاجتماعية ، ولكنها لا تخرج من حدود الحياة الأرضية وبعدها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وما في ذلك كله إلا متاع الحياة الدنيا .

وأما الدين فإنه يحيط بالأبعاد كلها ويجعلها في خدمة السعادة الأبدية والغايات الكونية . والحكمة في معناها الحقيقي الكامل هي أن يكون العلم في أبعاده العرفانية والعملية والتطلعية في خدمة ذلك الهدف الأسمى كما نجده في التعبير القراني .

الحكمة في التعبير القرآني :

الحكمة في معناها المطلق مثل العلم والقدرة صفة من صفات الله ، وتأتي مقرونة بالصفات التابعة لها كما في قوله : ﴿ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة 129/2] - ﴿ **الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام 18/6] - ﴿ **الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [يوسف 83/12] .

وإذا كانت الحكمة في حق الإنسان هي نوع من العلم يجعل الأعمال مطابقة للغايات ، كان من هدف الرسالة النبوية أن تعرف الناس بتلك الغايات ، وأن ترشدهم للعمل الذي يوصل لتلك الغايات : ﴿ **هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيّينَ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ** ﴾ [الجمعة 2/62] .

الحكمة تقابل الضلال وتفرق بين المؤمن والكافر . الضلال هو الانحراف عن الغاية وعن العمل الذي يؤدي إلى تلك الغاية : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضوا وَيَقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَذَّبوا وَاتَّبَعوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر 2/54 - 3] . والحكمة التي يهدي إليها الكتاب المنزل هي الرجوع إلى الطريق والسعي نحو الغاية الحقيقية : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فيهِ مُزْدَجَرٌ ، حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [القمر 4/54 - 5] .

أما مفهوم الحكمة في تفاصيله العرفانية والعملية والمنهجية فنجدها في كثير من الآيات القرآنية ، ومنها نستخرج الأسس التالية :

1 ـ الحكمة تفترض المعرفة، لأن المعرفة تهدي إلى الطريق وتنير الغاية المطلوبة : ﴿ إِنَّما يَخْشى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ﴾ [فاطر 28/35] ولذلك كان دعاء المسلم ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾ [طه 114/20] .

2 ـ الحكمة تفترض أن المعرفة تجمع بين المعقولات والغيبيات ، لأن المعقولات تبين الطريق ، والغيبيات تبين الأهداف وتزجر عن الانحرافات ، وتجتمع المعرفة العلمانية والمعرفة الإيمانية في ضمير المسلم لتثبت عقيدته : ﴿ والرّاسِخونَ في الْعِلْمِ يَقولونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ﴾ [آل عمران 7/3] .

3 ـ الحكمة تفترض أن العلم لا يتعدى حدوده البشرية ومقاييسه المنهجية . أما الحدود فقد رأيناها في النسبية والامتدادية والمحدودية النسبية تعبر عنها الآية : ﴿ وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾ [الإسراء 85/17] . والامتدادية تحتملها الآية﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾ [طه 114/20] . والمحدودية تقتضي عدم المغامرة الوهمية في عالم الغيب

كما تدعو اليه الآية ﴿ وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء 36/17] .

وأما المقاييس المنهجية فهي الاعتماد على نوعين من الحقائق المتكاملة :

ـ الحقيقة العلمية التي تكمل بالمشاهدة والتجربة والمنطق السليم في حدودها التي سبق ذكرها .

ـ والحقيقة الدينية التي تكمن في تصديق الكتاب المنزل وآياته البينات .

4 ـ الحكمة تقتضي أن تتعدى المعرفة إلى بعدها العملي الذي يؤدي إلى تحقيق الغاية ، وإلا فإن المعرفة تتجرد في النظرية أو تنحرف عن الطريق ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرونَ ﴾ [البقرة 17/2] . أو كما جاء في حق بني إسرائيل ﴿ وَلا تَلْبِسوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُموا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمونَ ﴾ [البقرة 42/2] . ﴿ أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ ﴾ [البقرة 44/2] .

5 ـ الحكمة هي تطابق العمل مع الغاية في بعديها الدنيوي والأخروي :

ـ أما البعد الدنيوي فهو بعد وظيفي يشتمل على تكليفين : العبادة لله والاستخلاف في الأرض .

ـ وأما البعد الأخروي فهو السعادة الأبدية الخالصة .

6 ـ الحكمة تقتضي توازن الأهداف الدنيوية والدينية وتتلخص في ترابط الأحكام التالية :

﴿ وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾ [القصص 77/28] .

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى ﴾ [الأعلى 17/87] .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف 32/7] . ذلك التوازن يعني عدم إنكار الحقيقة الدنيوية في واقعها ومطامحها وتكاليفها ، ولكنه يعني كذلك عدم إيثار تلك الحقيقة على الحقيقة النهائية ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى 87/16-17] .

7 ـ الحكمة تقتضي تربية النفس في أبعادها الاستعدادية ، وهي التي تؤهلها للقيام بوظائفها وتكاليفها . وتجتمع تلك الأبعاد في الأخلاق النفسية والسلوكية ، كما نجدها مفصلة في آيات كثيرة لا سيما في سورة الإسراء (في الآيات : من 23 إلى 38) ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء 39/17] .

وفي وصايا لقمان لابنه وهو يعظه (في الآيات من 13 الى 19 من سورة لقمان 31) .

8 ـ أما الحكمة في معناها المنهجي النسبي ، فيعني اتخاذ أوفق السبل لبلوغ أهداف ثانوية خاصة كما نجدها في الآيات :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ .[النحل 125/16] .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فَإذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ ﴾ [فصلت 34/41] .

***

الفصل الثالث

وظائف العلم

1 ـ مكانة العلم في البنية العقيدية والروابط العقيدية بين العلم والإيمان والعمل

المكونات العقيدية التي يرتكز عليها الفكر الاجتهادي تنطلق كلها من الوحدة النظرية والعملية بين تلك المكونات وهي أساساً :

ــ العقيدة الإيمانية .

ــ العلم والمعرفة .

ــ الأخلاق والسلوك .

تنبثق تلك المكونات العقيدية من ثلاثة عناصر أساسية :

ــ الفطرة ــ والعقل ــ والوحي .

وتظهر تلك المكونات في ثلاثة ميادين تطبيقية وهي :

ــ الإيمان

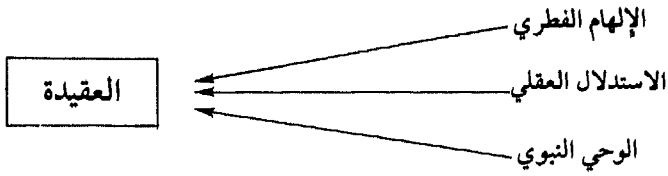
ــ والعلم .

ــ والعمل .

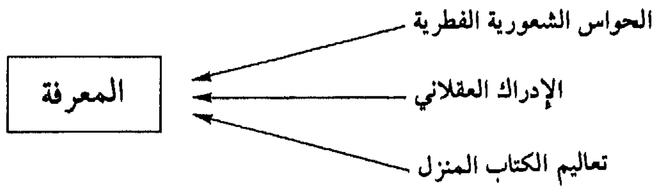
ذلك ما سنوضحه في التفصيلات والتعقيبات التالية :

1 ـ المكونات العقيدية النظرية والعناصر التي تمدها

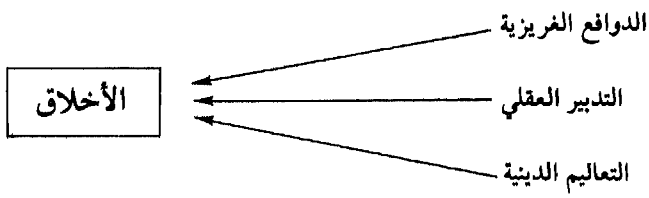
1 - 1 - **العقيدة الإيمانية** هي الصلة الضميرية بين المخلوق والخالق، وتشترك في تحصيلها ثلاثة عناصر أساسية :



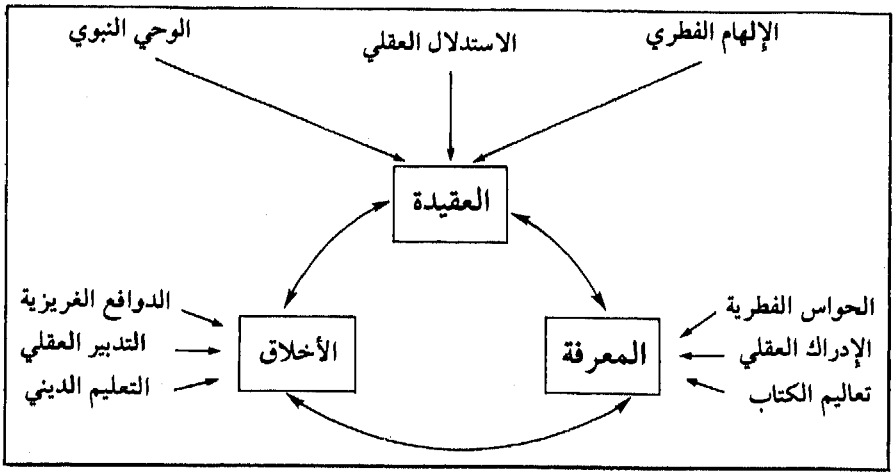
2 - 1 - **المعرفة** هي ظاهرة إدراكيـة تصل الإنسـان حسياً وشعـورياً بـالمحيط الكوني الـذي يوجـد فيـه ، وتشتـرك في تحصيلهـا العنـاصـر الأساسية الثلاث :



3 - 1 - **الأخـلاق** هي ظاهـرة سلوكية ونفسيـة تصل الإنسـان حسياً وعملياً بالمحيط الكوني والبشري الذي يوجد فيه ، وتشترك في تحصيلها العناصر الأساسية الثلاثة :



4 - 1 - تلك المكونات العقيدية وما يمدها من عناصر أساسية ترتبط ببعضها وتتفاعل فيما بينها كما نمثله في الرسم الجامع التالي :



ذلك الترابط العقيدي هو في الوقت نفسه نوعي وكيفي :

ـ فالعقيدة تشمل معطيات العلم والأخلاق وتتأثر بهما .

ـ والمعرفة تشمل ميداني العقيدة والأخلاق وتتأثر بهما .

ـ والأخلاق تشمل ميداني العقيدة والمعرفة وتتأثر بهما .

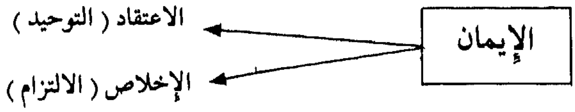
2 ـ المكونات العقيدية التطبيقية ومجالاتها

إذا اعتبرنا الإسلام كدين عملي يشمل الحياة الإنسانية في كل مظاهرها الذهنية والعملية تتضح لنا المكونات العقيدية في طابعها التطبيقي وهي الإيمان ـ والعلم ـ والعمل ، وفي مجالاتها العملية كما نبينه في التفصيلات التالية :

1 - 2 - **الإيمان** هو عقيدة المسلم التي تحل في قلبه الضميري ، والتي تصل بينه وبين الله ، وتشتمل تلك الصلة على مجالين :

ـ مجال ضميري يتمثل في الإيمان بالله ووحدانيته وبما أنزله في كتابه .

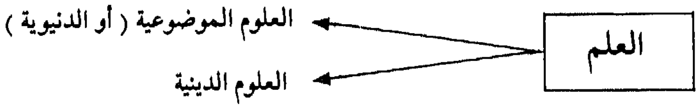
ـ ومجال التزامي وهو الإخلاص لله .



2 - 2 - العلم في مفهومه التطبيقي يجمع بين :

ـ العلوم الموضوعية وهي معرفة الصلة بين الإنسان والكون في طابعها العملي والتجريبي والإبداعي .

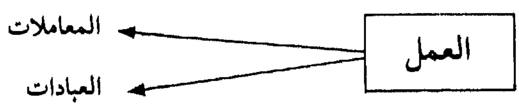
ـ العلوم الدينية وهي معرفة الصلة بين الإنسان والخالق وتجمع علوم الدين العقيدية (التوحيد) والتشريعية (الفقه) .



3 - 2 - العمل في مفهومه السلوكي يجمع بين ميدانين :

ـ المعاملات التي تصل الإنسان عملياً بالمحيط الطبيعي والبشري .

ـ العبادات التي تصل الإنسان عملياً بالخالق .



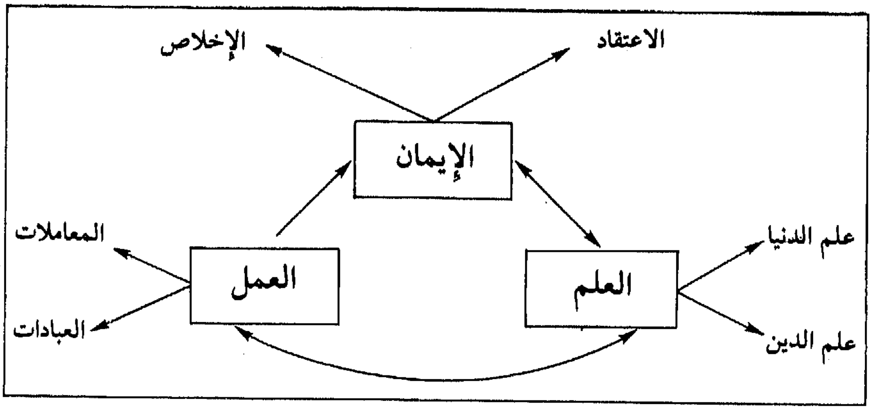
4 - 2 - الروابط التي تجمع بين المكونات التطبيقية هي في الوقت نفسه نوعية وكيفية :

ـ الإيمان عقيدة والتزاماً لا ينفصل عن العلم ولا عن العمل كما تقره الآية : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر 28/35] . فالخشية هي نتيجة للعلم ودافع للعمل .

ـ العلم في مجالاته الدينية والدنيوية لا ينفصل عن الإيمان بالله ، ولا عن الأخلاق التي توجه أهدافه ، وتراقب به سلوكات الإنسان .

ـ العمل لا ينفصل عن الإيمان الذي يبين المقاصد ولا عن العلم الذي يوضح السبل ويثبت الحقائق المشهودة .

يتبين ذلك الترابط في الجدول الجامع التالي :



3 ـ وحدة العقيدة والترابط بين المكونات النظرية والتطبيقية

تثبت الوحدة العقيدية والمنهجية بين المكونات النظرية والتطبيقيـة لأنها تنبثق من وحدانية الخالق ووحدة المقاصد التي تهدي إلى الخالق ، وهذا لا يتناقض مع اختلاف الطرق وتفاوت المفاهيم بالنسبة للإنسان.

1 - 3 - وحدانية الخالق ووحدة الخلق تفترض وحدة الأصول التي تعتمد عليها العقيدة وهي الفطرة ـ والعقل ـ والوحي .

ـ الله خلق الفطرة وألهمها : ﴿ الَّـذي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّـذي قَدَّرَ فَهَـدى ﴾ [الأعلى 87/2 - 3] . ﴿ فِـطْرَةَ اللَّهِ الَّتي فَـطَرَ النّـاسَ عَلَيْهـا ﴾ [الروم 30/30] .

ـ الله خلق العقل واختص الإنسان بالعلم ﴿ خَلَقَ الإِنْسانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ ﴾ [الرحمن 55/3 - 4] ﴿ عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق 96/5] .

ـ والله أنزل الوحي والكتاب ﴿ هُدىً لِلنّاس وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ ﴾ [البقرة 2/185] .

2 - 3 - وحدانية الخالق تقتضي وحدة الدين ، ولذلك كان الإسلام هو الدين المطلق في الخصوص وفي العموم ﴿ إنَّ الدّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران 3/19] .

فالإسلام هو دين الكائنات : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمَواتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران 3/83] .

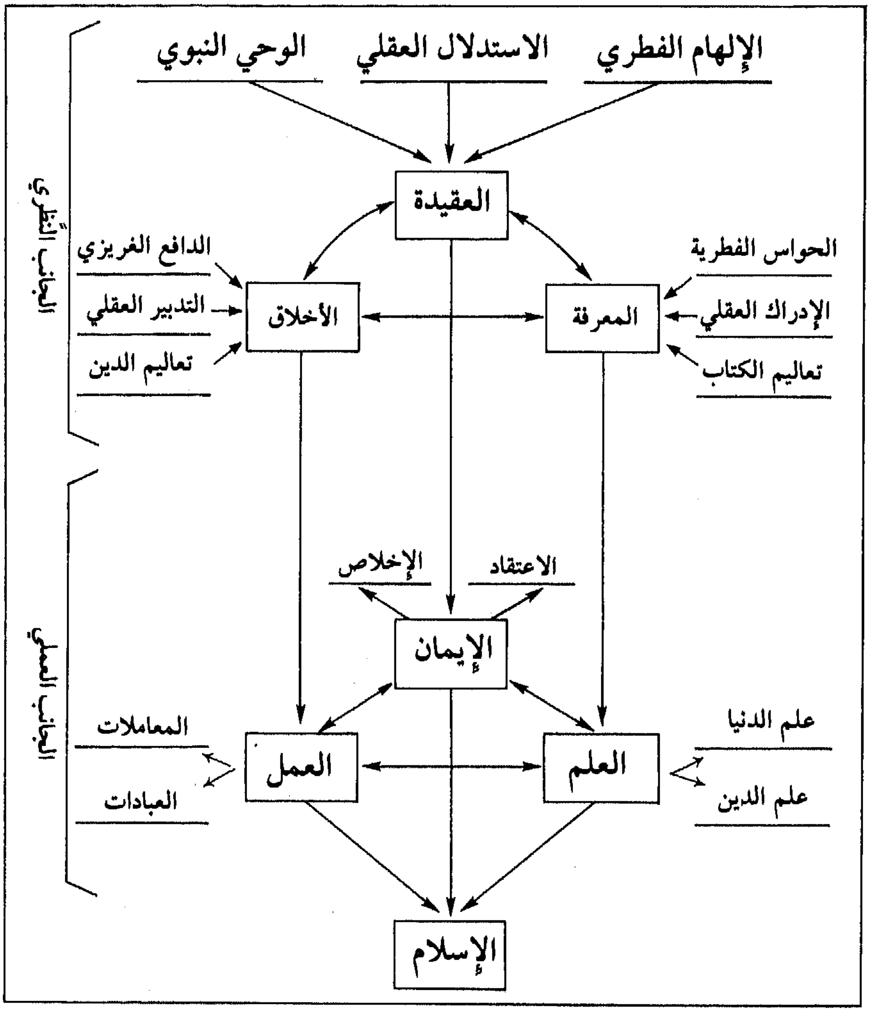
والإسلام هو دين الإنسانية منذ نزل الوحي على الرسل من أولهم إلى خاتمهم ﴿ ما يُقالُ لَكَ إلاّ ما قَدْ قيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت 41/43] .

والإسلام هو دين الأمة ذات الرسالة الخاتمة التي تسير على هدي القرآن .

3 - 3 - وحدانية الدين لا تنفي تفاوت الناس في درجات الإيمان والعمل ، ولا تنفي اختلاف المفاهيم الفرعية باختلاف العوامل الذاتية والخارجية التي تؤثر في مستويات المعرفة والمعتقدات والسلوكات ، ولكن وحدة الدين تُرجع كل شيء إلى وحدة المقصد الأول وهو الله ، وكل طريق لا تؤدي إليه فهي طريق الضلال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران 3/85] .

4 - 3 - وحدة الدين تعني وحدة المكونات العقيدية والعملية

والترابط الوثيق بينها . وهكذا تكتمل البنية العقيدية التي تجمع بين العناصر الأساسية والمكونات والمجالات العملية والتطبيقية وذلك يمثله الشكل الشامل التالي :



من هذا العرض التحليلي لمكونات الإسلام العقيدية والعملية سيتسع لنا المجال للبحث في العلاقة الوظيفية بين العلم والإيمان ثم بين العلم والعمل .

2 ـ العلم والإيمان

إن العلم في الإسلام فضيلة ووسيلة خص الله بها الإنسان لتتحقق إرادة الله في الإنسان كهدف بذاته ، وفي الإنسان كمكلف بوظيفة كونية يقوم بها في الأرض . أما الإنسان كهدف بذاته فيعني ذلك تهيئته للحياة الروحية في عالم البقاء ، وأما الإنسان كمكلف في الحياة الأرضية فيعني ذلك تعمير الأرض والانتشار فيها والقيام بمسؤولية الاستخلاف (انظر الرسم التالي) .

لا يقوم الإنسان بوظيفته الأرضية ولا يرتقي لسعادة الحياة الأبدية إلا بالعلم ، ولذلك أعطاه الله ملكة العلم وجعل ذلك العلم يقوم على ثلاثة عناصر مترابطة ، وهي **الفطرة** الحسية التي تصل الإنسان بالكون عن طريق الإحساس والشعور . **والعقل** الذي يصل الإنسان بالكون عن طريق الإدراك التحليلي والتطبيقي . **والوحي** الذي يصل الإنسان بإرادة خالقه .

كما أن ازدواجية الهدف في بُعْدَيْهِ الدنيوي والأخروي تعطي للعلم نفس الازدواجية ، بحيث أنه يشمل علوم الكون والطبيعة من ناحية ، وعلوم الدين من ناحية أخرى ، وكلاهما يلتقي في ظاهرة الإيمان التي تصل في ضمير الإنسان بين الخالق والمخلوق .

أما علوم الدين فَتُعَرِّفُ بوجود الخالق ووحدانيته ، كما تُعَرِّفُ بالأهداف الوجودية وما تفرضه من أهداف ومقاييس سلوكية .

وأما علوم الكون والطبيعة فإنها تعطي للإنسان وسائله الإدراكية والعملية لتأدية وظائفه الأساسية في حياته الدنيوية والدينية .

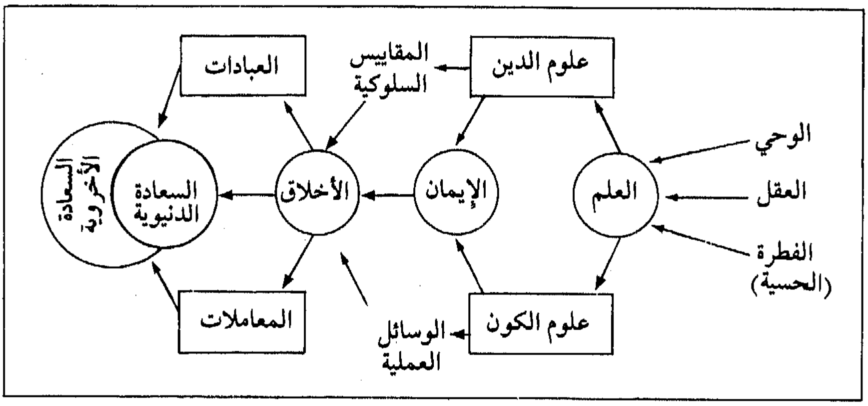
علوم الدين وعلوم الكون تجتمع في الميدان العملي على مستوى الأخلاق ، وتتفرع الأخلاق بدورها إلى ميداني العبادة التي تصل الإنسان

بخالقه، والمعاملات التي تصل الإنسان بعالم الأرض وبالمجتمع البشري .

يبقى أن الهدف النهائي هو الارتقاء الروحي الموعود وبلوغ السعادة الأبدية التي هي جزاء الإيمان ، والقيام بالأعمال الصالحة : ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين 26/83] .

ويبقى أن العلم هو الأساس والمنهج الذي يثبت الإيمان ويزكي النفوس وَيُقَوِّمُ الأعمال .

نلخص تلك المعطيات الأساسية في الرسم الجامع التالي :



إن العلم كما بيناه في أصوله العقيدية لا ينفصل عن الإيمان بالله ، لأنه الصفة الخاصة التي جعلها الله في الفطرة الآدمية ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة 31/2] .

وللعلم بُعْدان ؛ بعد دنيوي يربط بين الإنسان والكون الطبيعي والبشري ، وبعد روحي يربط بين الإنسان والخالق ، وكلا البعدين مترابطين ، يستنير أحدهما بالآخر ، لأن معرفة الإنسان للمخلوقات تُعَرِّفُهُ بقدرة الله وحكمته ، كما أن معرفة الخالق تُعَرِّف الإنسان بالأهداف والمقاصد الوجودية .

ومعرفة الكون في عظمته وعجائبه ونظامه هي معرفة الخالق في صفاته الأزلية ، مثل الوحدانية والعلم والقدرة والحكمة ، ولذلك يأمر الله بالتَّدَبُّرِ في آيات الكون ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتي تَجْري في الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾ [البقرة 164/2] .

وبمشاهدة الآيات الكونية يشهد الإنسان بعظمة الخالق ويلجأ إليه إيماناً وتضرعاً : ﴿ إِنَّ في خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران 3/190-191] .

العلم عامل أساسي في ترقية الضمير الديني وتوسيع آفاقه الحسية والعقلية ، لأنه يكشف عن عظمة الكون وعجائب المخلوقات ، وعن سنة الله التي جعلها في القوانين والطاقات التي تسير عليها الكائنات الجامدة والحية ، كما أن العلم يعطي للإنسان الوسائل الإدراكية والعملية لتسخير تلك القوانين وتلك الطاقات لمصلحته المعاشية والحضارية .

ومهما كانت نسبية العلم البشري فإنها تمثل طاقة عقلية هائلة تمكنه من معرفة الطبيعة وإخضاعها في نطاق تلك النسبية .

إن الأسفار (جمع سفر : 0) التي تتابع في حساباته وتقديراته لمسافات الفضاء الكبرى أو لمسافات ما تحت الذرة تشهد في الوقت نفسه على قدرة عقله المدهشة ، وعلى الحدود التي يقف ذلك العقل من دونها .

والعجـز نفسه يتعـرض له العقـل الإنساني في محـاولاته لمعـرفة الحقيقة الإلّهية التي لا تدركها الأبصار ولا تنفذ إلى صمديتها العقول إلا بما أنبئت به عن طريق الإلهام والوحي النبوي .

ولكن العلم والإيمان يلتقيان في هـذا المستوى الـروحاني الـذي يصل التطلع الإنساني والتقرب الإلّهي ، بحيث أن الإيمـان بالله يضيء طرائق العلم ، والعلم يضيء طرائق الإيمان ، وإذا غاب أحـدهما ضـل الآخر وفقد معنـاه . فعلم الكون من دون إيمـان بخالق الكـون ومدبـره يشاهد عَالَماً مادياً مغلقاً لا تظهر معانيـه ومقـاصـده . والإيمان من دون علم ينتكس في دائرة التَّخَيُّل البدائي كإيمان تلك العجوز التي تتصور أن الله يوجد في مكان ما في السماء العالية ، وكإيمان كثير من البلهاء الذين يتصورون الله في صفة إنسان ولا يختلف عنه إلا في قدرته الفائقة . وهل تعتبر تلك اللوحة السـاحرة التي رسمهـا (مايكل أنجلو Michel Ange) على سقف الكنيسة (سكستين Chapelle Sixtine) إلا عن ذلك التخيـل التجسيدي الذي يمثل الرب في صورة شيخ ذي لحية بيضاء وَرِدَاءٍ بَدَوِيّ طـويل ويشيـر بأصبعـه إلى الفضاء ، فيخلق السمـاء والأرض ، ويصنع الإنسان من عجين التراب ، ذلك الرب الـذي يشقى مع شقـاء البشر ، ويتجسد في هيئة البشر ليقاسمه محنة الأرض . إذا قيل أن ذلك التصوير ليس إلا رمزاً مجازياً ، فإن الرموز كثيـراً ما تتسلط على الحقيقـة وتحتل مكانها ، ألم تكن الأوثان المنحوتة من الخشب والحجر والحديد في بابل ومصر وقريش إلا رمـوزاً تمثل الأربـاب التي كانـوا يعتقدون أنهـا تسكن السماء ، وتدبر شؤون الإنسان ، أو تقربهم إلى الله زلفى ؟

التكامل المنهجي بين العلم والإيمان

ليس للوسائل العلمية والمناهج الجدلية أن تتمكن من حقيقة الدين وطريقة الإيمان . ولو كـان ذلك ممكنـاً لتوصـل العلماء والفـلاسفة إلى

إظهار الحقيقة حيثما كانت . لكن العلم الموضوعي والمنطق الجدلي لا يصلان إلى الإجابة الفاصلة بين النظرية والحقيقة .

والعلم والإيمان يلتقيان من دون أن يمكن لأحدهما أن يكذب أو يناقض الآخر بل يعتمد أحدهما على الآخر . أما الإيمان فيعطي للعلم أبعاده العقائدية والأخلاقية ، ويعني ذلك أنه يعطي للأشياء وللقوانين التي تُسَيِّرُ الأشياء معناها الأول وغاياتها الوجودية . وأما العلم فإنه يعطي للإيمان مادته المحسوسة وبرهانه العقلي .

الإنسان الذي يؤمن بالله وبما أنزله من علم الغيب يجد في العلم تأكيداً لإيمانه وتصديقاً لما بلغه من الكتاب وتوسيعاً لآفاقه الروحية ، لأنه يعتقد أن الله هو خالق الكون ومقدر قوانينه ومدبر حركاته وتحولاته ، وكلما ازداد علمه عن تلك القوانين وتلك الحركات وذلك النظام يزداد إيمانه بالله : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر 28/35] .

وأما الإنسان الذي يرفض البعد الإيماني فإن علمه لا يتعدى حدود الظواهر ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الرُّوم 7/30] . ومهما تعمَّقَ في معرفة الدقائق من الجزئيات فإنه يجهل الجانب الأساسي من الوجود وهو الجانب الروحي الذي يربط بين المخلوقات والخالق : ﴿ **وَالَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ في الظُّلُمَاتِ** ﴾ [الأنعام 39/6] ، ﴿ **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ في غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** ﴾ [الكهف 101/18] .

مهما بلغت المحاولات الكلامية والجدلية من جدية وعقلانية فإن منهجيتها الاستدلالية على وجود الله أو على عدم وجوده لا تأتي بالدليل القاطع اليقيني بل قد تؤدي تلك المحاولة إلى التباس خطير وتناقض بين العلم والدين ، وهذا ما يحصل عند المفكرين أو المتفلسفين سواء

الدينيون منهم أو الماديون حينما يحاولون الإجابة عن أسئلة ذات الطابع الغيبي مثل : ذات الله ـ خلق الكون ـ العلاقة بين الخالق والمخلوق فيما خوله من إرادة وتكليف ـ مسؤولية الإنسان ـ مصير الإنسان .

لقد حاول الناس الإجابة عن هذه الأسئلة واعتمدوا على معطيات العلم وتحليلات العقل ، فإذا هم يصلون إلى نتائج متباعدة ومتناقضة بل ومعارضة للمنطق نفسه . فمنهم من انتهى إلى أن المادة ليس لها وجود أصلاً . ومنهم من يقول إن المادة هي كل شيء وما دونها باطل . أو أن العالم أزلي الوجود مستقل في نظامه وسيره ومصيره . ومنهم من يقول إن الله خلق الإنسان ثم فلت الإنسان عن إرادته . ومنهم من نفى كل إرادة أو مسؤولية للإنسان في فكره وأعماله . ومنهم من يحكم ـ بمنطق الجدلية ـ بأن الحياة والإنسان وعقل الإنسان ظواهر ليس لها معنى ولا هدف بل نتجت عن تفاعلات صدفية عمياء بين ذرات الكون . . إلى غير ذلك من آراء ونظريات وتخمينات ظاهرها علم وباطنها خيال تتصادم فيما بينها بما تحمله من خلط بين الحق والباطل .

وإذا تصورنا كل الصعوبة بل الاستحالة التي يتعرض لها العلم الإنساني في محاولته لتفهم ظاهرة نفسانية صغيرة كفكرة بسيطة تتمخض في رأس طفل لم يَقِفْ على رجليه بعدُ ، فهنالك يظهر لنا قصور العقل البشري وغروره حينما يتصدى للكلام على ذات الله وصفاته وعرشه ، بل وحتى وجوده ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** . . . ﴾ [يس 36/77 - 78] .

لا ينقص هذا العجز المبدئي من قيمة العلم وفضيلة العقل اللذين جعلهما الله سمة لهذا الإنسان الذي استخلفه في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له . إنما يُشَوِّهُ العِلْمَ وَيَشِينُ العَقْلَ أن يحيدا عن منهاج الحق

وأن يتوغلا في متاهات الظنون التي لا تغني من الحق شيئاً .

كما أنه ليس من الإيمان أن يَقِفَ الدين كحاجز في طريق العقل والبحث العلمي ، لأن الله خول الإنسان هذا العقل وهذا العلم ليكون كفيلاً بمسؤوليته الخلافية ومتطلعاً على حقيقة الخالق التي يجدها في عظمة خلقه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت 53/41] .

يبدو أن الإيمان هو في ذاته ظاهرة ضميرية تربط بين الحقائق المشهودة والحقائق الغيبية تنطلق من عالم المحسوسات وتصلها بالأصول والغايات ، وبذلك هي بالنسبة إلى العقل مثل العقل بالنسبة للغريزة الحيوانية وكالغريزة الحيوانية بالنسبة لقانون الطبيعة في عالم الجامدات .

يدخل الإنسان في عالم الإيمان بِتَحَوُّلٍ نفساني روحي قد تلعب فيه الفطرة والعقل دوراً استعدادياً ، ولكن ذلك التحول لا يتم إلا باللقاء بين دافع التطلع الإيماني والهداية التي تجذبه وتستقبله . أما الدافع الإنساني فكما نجده في الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ [الانشقاق 6/84] . وأما اللقاء والاستقبال فكما نجده في الآية : ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبادِي ، وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر 27/89 - 30] .

وإذا كان الإيمان ظاهرة مستعصية عن التحليل المنطقي فإنه يعبر عن جهد عملي وذهني يقوم به الإنسان بإخلاص والتزام ليصل إلى حقيقة الإسلام اعتقاداً وسلوكاً فيلتقي ذلك الجهد برضا الله وهدايته ﴿وَيَزِيدُ اللّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً . . ﴾ [مريم 76/19] .

إن ما نسميه بالجذب الرباني أو الهداية الإيمانية تقوم على ثلاث

قواعد مترابطة ومتكاملة :

1) الفطرة الاستعدادية التي تدفع الإنسان إلى دين الله : ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم 30/30] .

2) الملكة العقلية التي تستكشف مناهج الحقيقة في الكون وتستدل بها ، ولكن الاستعداد الفطري والاستنباط العقلي لا يؤديان إلى الإيمان بالله إلا تصوراً واستقراء ، وهنا تظهر الحاجة إلى العنصر الثالث .

3) الهداية التي تنزل عن طريق الوحي وتثبت عن طريق الإلهام وتنتقل عن طريق الكتاب المنزل ﴿ **هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ** ﴾ [البقرة 185/2] .

إن المؤمن الذي أجاب داعي الله وعمل ليستحق مرضاة الله لا يعتقد أن إيمانه ينقصه من حقه في معرفة الكون وقوانينه ، وفي تسخير الطبيعة وطاقاتها ، وفي التمتع بزينة الأرض وطيباتها ، بل يعتقد أن الكون مسخر له أكثر من غيره لأنه يعلم أن خالق الكون سخره له ، ويعتقد أن العقل والعلم نعمتان أودعهما الله في الإنسان ، إلهاماً واكتساباً ، تكريماً وتزكية ، وتثبيتاً وهداية ، ليقوم بخلافة الأرض ويعمل الصالحات .

إن الإسلام مثل ما يجمع بين الإيمان والعمل كما نجده في العبارة القرآنية المتكررة ﴿ **الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [البقرة 25/2 ، ومواضع أخرى كثيرة في القرآن العظيم] . يجمع كذلك بين الإيمان والعلم كما نجده في الآية ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر 28/35] .

3 ـ العلم والعمل ـ علم الأخلاق وأخلاق العلم

علم الأخلاق

إن **الهدف الأساسي** العام من السلوك الإنساني في مفهومه الديني هو تأدية الوظيفة الوجودية التي خلق الله الإنسان من أجلها وتتمثل في تأدية الأمانة التي تحملها من دون المخلوقات بما فيها من عبادة الله وخلافة في الأرض ، وذلك ما يتبين من خلال الآيات الثلاثة التالية :

ـ ﴿ **إنّا عَرَضْنا الأَمَانَةَ عَلى السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإِنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً** ﴾ [الأحزاب 72/33] . .

ـ ﴿ **وَإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً** . . . ﴾ [البقرة 30/2] .

ـ ﴿ **وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ** ﴾ [الذاريات 56/51] .

تقوم هذه الوظيفة على ثلاثة شروط :

شرط اعتقادي هو الإيمان بالله ، ويعني ذلك الاعتقاد والاعتراف بربوبيته ووحدانيته وصمديته .

شرط عملي وهو الولاء لله فيما أمر به من عبادات وأعمال وفيما نهى عنه من فواحش ومخالفات لأوامره .

شرط استعدادي يكمن في الأخلاق النفسانية والعقلية .

وأما **الهدف الخاص** من السلوك الإنساني ، فهو نيل السعادة في الدنيا والآخرة ، والسعادة في مفهومها الديني مرتبطة أساساً بتأدية الوظيفة الوجودية العامة بشروطها المذكورة وفي مواعيدها النهائية .

هذان البعدان الدنيوي والأخروي يجعلان الأخلاق في النظرة الإسلامية لا تفصل بين طبيعة الإنسان الفطرية بما فيها من غرائز حيوانية وبشرية وبين طبيعته الروحية التي يتميز بها ويتفوق بها على كثير من المخلوقات ، كما لا تفصل بين سنة الله في الكائنات التي تتمثل في القوانين الطبيعية وإرادته الحكيمة فيما خلقت من أجله تلك الكائنات ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى ، الّذي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالّذي قَدَّرَ فَهَدى ﴾ [الأعلى 87/1 - 3] .

هذه الوحدة العقيدية بين البعدين الدنيوي والأخروي ، أو المادي والروحي ، تعني كذلك رفض المواقف المتطرفة التي تقتصر في تقييم السلوك الإنساني على ظاهرة الدافع الحياتي الذي يجهل الأهداف الوجودية الأولى ، أو على ظاهرة التدين الذي لا يتحمل مسؤولية الحياة . وتمتد تلك الوحدة العقيدية الى ميدان المعاملات الاجتماعية ، فنراها تصل بين مصلحة الفرد في مطامحه المادية والمعنوية ومصلحة الكتلة الاجتماعية في تعاضدها وتلاؤمها وتوازنها .

وهكذا تبقى الأخلاق ملتصقة بالواقع الإنساني في أبعاده المادية والروحية من جهة ، وفي ترابطه بالمجتمع من جهة أخرى ، لأنها لا تفرق بين الحاجة الحياتية والتطلع الروحي ، كما لا تفصل بين الفرد والمجتمع باعتبار المجتمع خادماً للفرد ، والفرد خادماً للمجتمع في مجموعة متعاضدة ومتماسكة « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » .

تشمل الأخلاق ميادين عملية متكاملة تظهر على المستويين الفردي والاجتماعي .

أما على المستوى الفردي فتتمثل الأخلاق في الصفات الذهنية والعملية التي ذكرناها وهي :

ـ الإيمان الذي يعطيها معانيها ، ويحدد أهدافها ويضع مقاييسها .

ـ الاستعداد النفساني الذي يربي النزعات الفطرية ويزكيها .

ـ الاستعداد العقلي الذي يعطيها وسائلها العرفانية والتقديرية والعملية .

ـ التقوى التي تتمثل في طاعة الله والإصلاح في الأرض والإحسان إلى الناس .

وإذا كان للأخلاق هدف ذاتي فذلك تحقيق السعادة في مراحلها الدنيوية والأخروية ، وفي أبعادها الجسمية والنفسية والترفيهية والعقلية والروحية .

وأما على المستوى الجماعي فالأخلاق تشمل المعاملات بين الناس في المرافق المعاشية والأمنية والنظامية والاقتصادية والدينية التي تهدف إلى تحقيق المجتمع المتكافل والمتلائم في وجوده وفي مصيره وفي تأديته لرسالة الحق في داخله وفي خارجه ، بحيث تكتمل فيه صفات الأمة الفاضلة المسؤولة كما تعبر عنها الآيتان :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران 110/3] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ ﴾ [البقرة 2/ 143] .

إن الخطأ الذي كثيراً ما يقع فيه الفكر الإصلاحي العلماني (Réformiste) هو الفصل بين المكونات المترابطة التي تتميز بها الأخلاق في الإسلام كالفصل بين واجبات العبادة وموجبات الاقتصاد ، أو بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية والإنسانية ، أو بين مطامح الفرد ونظام المجتمع .

فإذا كان الاقتصاد مثلاً في التعبير الماركسي هو (البنية القاعدية

Infrastructure) التي ترتكز عليها حياة المجتمع ، فإن مفهومنا للاقتصاد يختلف عما تعطيه له الجدلية المادية ، فالإسلام يعتبر الأرضية الاقتصادية من المقومات لا من المقاصد النهائية ، ويعتبر الأرض بما تكنه من ثروات وطاقات مسخرة للمخلوقات لتنطلق الحياة فيها ومنها ، وليزدهر الإنسان فيها بعقله وروحه ليس باعتباره ظاهرة عفوية صدفية ولا ظاهرة حتمية قدرتها الجدلية الكامنة في الطبيعة ، ولكن باعتباره مخلوقاً مكرماً ومكلفاً قضت الحكمة الإلهية أن تستخلفه في الأرض .

كما ليس لهذا المبدأ العقيدي أن يجرنا إلى تطرف معاكس يقضي بأن الإسلام وضع دستوره النظامي والعملي بصفة دقيقة ونهائية لم تترك للإنسان مجالاً للتفكير والتدبير والإبداع في مجالات الحياة الاقتصادية والعلمية والحضارية . إن الله لم يخلق العقل البشري عبثاً ولم يعلمه الأسماء كلها ليسلك سلوك الجماد والحيوان . إنما حدد له المقاصد ووضع له المقاييس الأخلاقية التي تخدم تلك المقاصد ، وأمره باستخدام العقل لمعرفة الكون في تراكيبه وحركاته وقوانينه ، ولتسخير موارده وطاقاته ، ولتدبير معائشه وأنظمته وسلوكاته .

أما إذا تصادمت المصالح والمطامح بين الأفراد والجماعات ، فإن دور التعاليم الدينية والأخلاقية أن ترجع الأمور إلى أصولها ومقاصدها بتذليل المعاكسات ومحاربة الانحرافات وردع المظالم والقيام بالعدل والإصلاح بين الناس .

ولكن الأخلاق لا تتمكن في المجتمع إلا إذا تمكنت في الأفراد جامعة بين الاستعدادات النفسية كالرحمة والأمانة والإنصاف والتصرفات العملية الرشيدة كالدفاع عن الحق . وما أبعد الناس عن تلك الفضائل الأساسية بسبب ما يحملونه في نفوسهم من غرور وغفلة . وهكذا نرى كثيراً من السلوكات الأخلاقية عند المسلمين تتنافى مع المبادىء

الإسلامية القاعدية ، كما نرى أغلبية النظم الإسلامية تنتسب إلى الإسلام وتدوس تعاليمه بدون احتشام ولا احترام .

إنـه لا يمكن أن نتمسك بـروح الإسلام دون أن نكـون ثوريين ، ويعني ذلك دون أن نسير بحزم وجد ويقين في مفهوم تجديدي وتقدمي يتصدى لتناقضات الساعة ومعاكساتها المختلفة في داخل الأمة الإسلامية وفي خـارجها . هـذا هـو المعنى الحقيقي للجهـاد والاجتهـاد في ثـورة مستمـرة على الفساد والعنـاد ، وفي نظرة متكـاملة تـرتكـز على أسسهـا العقيدية الثابتة ، ويعني ذلك :

ــ الالتزام بتعاليم الإسلام الثابتة في القرآن والسنة النبوية .

ــ تطبيق تلك التعاليم بتدبر وحكمـة تعتبر الـظروف والأحوال في حياة الفرد والمجتمع ولكنها لا تخضع لتلك الظروف .

ــ ردع الانحـرافات السلوكيـة والأمـر بـالإصـلاح طبقـاً لـلآيـة : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ** ﴾ [آل عمران 104/3] .

ــ العمل على تأدية الخلافة الأرضية ، بما يعني ذلك من إصلاح في الأرض ، وإحسـان للإنسـان ، ودفاع عن الحق ، وتبليـغ لـرسـالـة الدين .

ــ التفتـح الحضـاري للعلم والبحث والإبـداع ، مـا دام يخـدم الإنسان ويزكيه ويرفعه في أبعاده الإنسانية المتكاملة .

ــ كما أنه من الواضح أن تلك الثورة المستمرة تشمل كل مـظاهر الحياة الفردية والاجتماعية من التصرفات الخاصة إلى النظم السياسية ، ومن ضرورات المعاش إلى المشاريع التنموية الكبرى .

وإذا أردنا أن نميز الفلسفة الإسلامية في واقعها التطبيقي بالمقارنة مع العقائد الأخرى فإنها تشمل الجانب المادي كميدان فكري وعملي ،

ولكنها تتجاوزه كنظرة شاملة للوجود تصل بين الواقع المعاشي والمصير الموعود ، وبين العلمية الموضوعية والهدفية الوجودية .

كما أن الدستور الأخلاقي يجمع بين الفضائل الأساسية التي تقرها العقلانية العلمانية في كلا النظامين اللبرالي والاشتراكي ، والفضائل الروحية التي تضع تلك الأخلاق في إطار مقاصدها الأولى .

لا ريب أن الواقع الإنساني وتقلبات الأحوال كثيراً ما تتنافى مع المبادىء السامية التي يُعْلِنُهَا الدين . هذه الظاهرة لا يختص بها تاريخ المسلمين وقد نجدها في المجتمعات العلمانية المعاصرة . أما المجتمع اللبرالي فقد أفرط في تقديس الحريات الفردية مما أدى إلى تصادم المصالح والتنافس الحاد بين الأفراد والتكتلات الاجتماعية ، وأما المجتمع الاشتراكي فإنه بالغ في مفهوم التضامن الاجتماعي حتى أساء لكرامة الإنسان وحرياته من دون أن يحقق العدالة الحقة ولا حتى السعادة الدنيوية .

لم يكن للإنسانية في ماضيها ولن يكون لها في مستقبلها أن تحقق الأمة المتناهية في السعادة والكمال ، وذلك ما دامت التناقضات الطبيعية تهيمن على العلاقات الإنسانية ، وليس في طاقة الإنسان أن يغير القوانين التي تسير الكائنات سنة الله في خلقه ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر 43/35] .

لكن المهم ـ وذلك ما تقره العقيدة الإسلامية ـ هو أن الحياة الدنيا مرحلة في وجود الإنسان يبتلى فيها ويمتحن ﴿ **خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك 2/67]، وأن الخير والشر والموت والحياة والشقاء والسعادة والتعاون والتنافس هي من طبيعة الحياة البشرية ، وأن الإنسان مأمور بأن يسعى للخير ويحارب الشر ، وأن يحترم الحياة ويتقبل الموت ، وأن يسعى للسعادة ويصبر للمتاعب .

إن الحياة الدنيا جهاد مستمر لعمل الخير ودفع الشر ، وهي مدرسة عملية لتزكية النفس ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها** ﴾ [الشمس 91/9 - 10] . هو ارتفاع النفس وازدهارها في الأخلاق السامية والسعادة الروحية ، وأما الخيبة فهي البقاء في حضيض الشهوات المادية الفانية .

في هذا اللقاء الجدلي بين قوانين الحياة وإرادة الإنسان الواعية وهداية الكتاب المنزل من الله ، يصعد الإنسان إلى درجة الحق التي تصله بالخالق وتطمئن فيها نفسه بالسعادة المطلقة ﴿ **رَاضِيَةً مَرْضِيّةً** ﴾ [الفجر 89/28] .

إن العلاقة بين الجانب الروحي والجانب المادي في النفس البشرية لا تعني تصادم قوتين فيها متناقضتين تبطل إحداهما الأخرى ، وإنما هي لقاء إيجابي بين قوتين مترابطتين متفاعلتين تنتج عن لقائهما حركة دافعة مبدعة ومحررة لا تعتمد على الواقع المادي إلا لتنطلق في عالم الروح السامية ، وذلك ما تعبر عنه القاعدة العملية الحكيمة التي تقول « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . . .

تعبر تلك الحكمة عن ازدواجية الإنسان المتكاملة من حيث هو كائن حي له مكانته وحقه ووظيفته في الأرض ، ومن حيث هو كائن مفضل ومكرم بالأمانة الروحية . وتنسجم تلك الازدواجية في وحدة النظام الكوني ، وفي وحدة العقيدة الدينية على امتداد المكان ومرور الزمان . خلق الله الإنسان من المادة المتغيرة والروح المتسامية ، وجعل حياته في مرحلتين حياة التكليف والابتلاء في الأرض ، وحياة المحاسبة والجزاء في الأخرى : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إلاّ ما سَعى** ﴾ [النجم 53/39] .

أخلاق العلم

من الفطرة التي جعلها الله في الإنسان منذ وجوده في الأرض كإنسان سوي أنّه اهتدى للعلم والتعلم والبحث والتجربة ، واستخدم تلك الملكة لضمان معاشه وأمنه وراحته ورفاهيته . اكتشف النار واستخدمها للطبخ والتدفئة ، واكتشف الملح وأدخله في طعامه ، واكتشف المعادن وصنع منها الأمتعة والآلات والأسلحة . وصنع اللباس والأثاث من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وطور وسائل الاتصال الحسية والرمزية واللغوية مع غيره من البشر ، فنطق بالكلمات واللغات ، واخترع الكتابة والأرقام ، ثم امتد عقله وبصره إلى الآفاق الواسعة في الأرض وفي السماء ، وغَيَّرَ علاقاته الذهنية والعملية مع الطبيعة الجامدة والحية ، وحَوَّلَ الطاقات الظاهرة والكامنة في الأرض والجو وتحت الثرى ، إلى أن تَوَصَّلَ إلى ترويض الطاقات النارية والكهربائية والشمسية والذرية .

لكن ما توصل إليه الإنسان من معرفة واكتشافات وصناعات ليس من شأنه أن يميز بين الخير والشر ، ولا أن يدبر علاقات الإنسان مع الإنسان ، ومع الأشياء التي تحيط به إلا باعتبار الدافع الغريزي والمصلحة الظرفية . لذلك فإن العلم بحيث هو معرفة الأشياء في كياناتها وعلاقاتها وقوانينها لا يكفي في حد ذاته لتقييم السلوك الإنساني وتقدير مقاصده الأولى وعواقبه الأخيرة ، ذلك من صلاحيات أنواع أخرى من المعرفة وهي الأخلاق والدين .

ولنضرب لذلك مثلاً يميز بين أدوار العلم والأخلاق : حينما أمُرُّ على رجل ملقى على الأرض أصابه حادث في الطريق ، فقد أسارع في نجدته بدافع الرحمة والتعاطف أو الواجب الإنساني أو الديني . هذا هو دور الأخلاق . أما العلم فليس من شأنه أن يتدخل في مبادرتي لمواساة

المُصَابِ . إنَّمَا دورُه أن يُرِيَني كيفية المساعدة والمعالجة .

كما أن هنالك أمثلة كثيرة تبين لنا مدى وكيفيات تدخل العلم في ميدان الدين والأخلاق ، وتدخل الأخلاق في ميادين العلم كما شرحناه في مؤلف سابق (تحديات علمية وآفاق اجتهادِية) ، وسنكتفي هنا ببعض القضايا التي يلتقي فيها العلم بالأصول الدينية والتعاليم الأخلاقية .

ــ في تطبيق الأحكام الشرعية كثيراً ما يرجع القول الفصل إلى العلم الموضوعي فيستعين الفقيه بالطبيب مثلاً في استعفاء المريض من فريضة الصيام ، لأن الطبيب أقدر على معرفة الأضرار التي يتعرض لها الصائم في حالة إصابته بقرحة المعدة أو الداء السكري أو السل الحاد . . .

ــ قد أعفا الشارع من الصيام طبقاً لمبادىء اليسر وعدم الحرج كلاً من المسافر والمريض والعاجز والعامل المرهق والمرأة الحائض أو الحامل والمرضعة، وهنا يستعين العلم بالعلوم الطبية لتحديد الفتوى ، كما يلتقيان في الحكم على بعض الإجراءات الطبية كالتلقيح والتلقيم وزرع الأعضاء وتحديد الموت .

ــ على مستوى السياسة الاقتصادية والاجتماعية والنظامية قد يكون العلم الموضوعي مساعداً بصفة مباشرة على تطبيق النصوص أو المقاصد الشرعية ، كتحديد الميزانيات وتقسيم المواريث وتقييم الزكاة . وقد يكون العلم في خدمة المشاريع الإنمائية الكبرى ، فتترك للعلم والتكنلوجيا تدبير الكيفيات والمناهج والسبل ، وهكذا يَرْجِعُ النظام الاقتصادي بما يشمله من مرافق إنتاجية وتصنيعية وتوزيعية إلى الاختصاصيين في ميادين الصناعة والتوزيع والتجارة والإدارة والإعلام ، بشرط أن تبقى تلك السبل وتلك الوسائل خاضعة لمقاييس الشريعة والقيم الأخلاقية والروحية .

وتجتمع الكفاءات التقنية والشرعية للتوحيد بين مقاييس الشريعة ومقاييس الإنجاز ، وليس هنالك تناقض ولا تفاوت بين الفعالية المنشودة والمصلحة المقصودة ، ما دام الإيمان بالله هو المسير للضمائر والأعمال .

قد نتصور حينذاك حيرة الخبراء الذين يعملون في تدبير وصنع الأسلحة الفتاكة التي يجعلونها بين أيدي الجبابرة المستكبرين ، حيث يتضح نظرياً أنه من حق العلم أن يخضع لحكم الأخلاق ، كما يتضح عملياً أن العلم كثيراً ما يستعمل في خدمة المطامح والشهوات الطاغوتية .

كما أنه من الإغراء الخطير أن نعتبر أن العلم الموضوعي هو المقياس الذي تنبثق منه تقديرات القيم ، كما زعم ذلك جَاكْ مُنُودْ في قوله : « بقدر ما تعلو مطامحها ، فإن أخلاقية المعرفة قد تلبي متطلبات السمو . إنها تعرف القيم السامية التي هي المعرفة لا لتستخدمها ولكن لتخدمها حسب اختيار مَعَلَّلٍ وَوَاعٍ » . وهكذا ينزلق الفكر إلى اعتبار الوسيلة التي هي العلم هدفاً في ذاته تخضع له القيم والأخلاق ، بينما لا يتم ذلك إلا إذا كان العلم مَنُوطاً بالحكمة التي تُحَدِّدُ من خارجه مقاصدَه ومقاييسَه .

إن الروابط الملزمة بين تعاليم الدين التي لا تتغير في مبادئها ومقاصدها والعلم الذي يتوسع ويتطور تتحقق في المفهوم الإسلامي للاجتهاد ، سواء الاجتهاد الفقهي الذي يستخرج فتواه من النصوص الشرعية الثابتة باعتبار الأحوال والظروف مثل التي تطرح حول استعمال الوسائل العلمية الحديثة في الميادين الطبية والاجتماعية والاقتصادية ، أو في الاجتهاد الحضاري الذي يسعى من أجل التقدم العلمي والتكنلوجي والثقافي ، والذي يفتح للعلماء سواء كانوا متخصصين في الدين أو متخصصين في العلوم الطبيعية والصناعية آفاقاً هائلة وخطيرة تلزمهم في

الوقت نفسه بالجرأة الإبداعية الكبيرة وبالمراقبة الأخلاقية والشرعية الصارمة .

إن المؤسسات الدولية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية تتطور مع العوامل التاريخية والحضارية ، ولا يمكن ـ مثلاً ـ لرجل الاقتصاد في القرن العشرين أن يحافظ على المناهج التي اتبعت في القرن العاشر ، بل عليه أن يحدد المناهج ويختار السبل طبقاً للأهداف المقررة ، وباعتبار الحقائق والمعطيات الموضوعية التي بين يديه . وفي هذا المنظور التطوري لا يمكن أن نتصور أي تناقض بين الأهداف المقررة والمناهج المتبعة والمقاييس الأخلاقية ، إلا إذا كان رجل الاقتصاد لا يعبأ بتقدم العلوم وتغير الأوضاع . وفي هاتين الحالتين قد تختلف النظرة لمفهوم المصلحة العامة لأنه قد يحدث أن رجل العلم أو رجل الدين يقعان في الانحراف العقيدي أو الخطأ المنهجي عندما تتغلب عليهما في تقديرهما لتلك المصلحة نزعات تكتلية أو عاطفية تجعلهما ينحرفان عن المسؤولية التي منحتهم الأمة اعتباراً وتقديراً لما يحملانه من كفاءة تقنية أو دينية .

نستخلص من ذلك أن السبيل الأقوم في تقدير أخلاقية العلم تكمن في الوحدة المنهجية بين الرصيد العلمي المكتسب بالبحث والجهد والتعاليم الدينية المنزلة ، وتلك الوحدة تقتضي بدورها وحدة القوانين الطبيعية التي تمثل سنة الله في المخلوقات والقوانين التشريعية التي تهدف إلى ترقية الإنسان وتزكيته نفسياً وأخلاقياً وروحياً .

قد يذكر لنا التاريخ مواقف سلبية لكلا النوعين من رجال العلم في تورطهم في خطط سياسية ومظالم استبدادية لا تتفق مع وظائفهم العلمية ومسؤولياتهم الأخلاقية ، وهذا يعني أنهم فقدوا روح الأخلاق وشجاعة الضمير واتفقوا مع المفسدين الجائرين على الإثم والعدوان واستضعاف

الأمم وتشديد الشعوب كما تشهد عنه أنباء كل يوم .

إن العالم الإسلامي في تطلعاته إلى مستقبل يجمع بين الأصالة الدينية والثقافة الإنسانية في حاجة إلى نظرة جديدة ومجددة يكاد لا يوجد لها سابق تاريخي للعلاقة بين العلم والدين .

تتسم تلك النظرة بمبدأين أساسيين هما الوحدة بين العلم والدين ، والشمولية بين مكونات الحضارة ، وهي العقيدة والأخلاق والثقافة والاقتصاد .

أما الوحدة بين الدين والعلم فلا تعني أن رجل العلم ورجل الدين قد يلتقيان في العمل في المخبر أو المكتب أو المصنع أو المنصب الوظيفي نفسه ، أو أنهما يسلكان المناهج التجريبية والتطبيقية والتقييمية نفسها . وهذا حتى إذا افترضنا أن رجل العلم قد يكون في الوقت نفسه رجل علم في الطبيعة ورجل علم في الفقه والدين ، لأنه في هاته الحالة سيعمل على مستويين مختلفين للمعرفة وللعمل . إنما وحدة العلم تعني ذلك التكامل العملي والمعنوي على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة بين بعدي الدين والدنيا ، أي بين بعدي الواقع الأرضي والمصير الأخروي .

في رأينا أن كل مبدأ أخلاقي عليه أن يجمع بين بعدين مترابطين ، بعد سطحي متعلق بالأحوال الأرضية ومسؤولية الاستخلاف في الأرض وبعد عمودي متصاعد متعلق بالانطلاقة الروحية الرافعة .

وفي النفس الإنسانية صراع دائم بين هذين البعدين الأساسيين كما تعبر عنه الآية :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس 91/7 - 10] .

إذا كانت الجدلية المادية تقتصر على التناقضات الطبيعية داخل

البعـد الدنيـوي كالتي تحـدث على المستـوى الاجتمـاعي بين الفئـات والقطاعات ، وبين المدينة والأرياف ، وبين الصناعـة والفلاحـة ، وبين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، فإن تلك الجدليـة تؤدي الى اختلاف القيم والمواقف والسلوك .

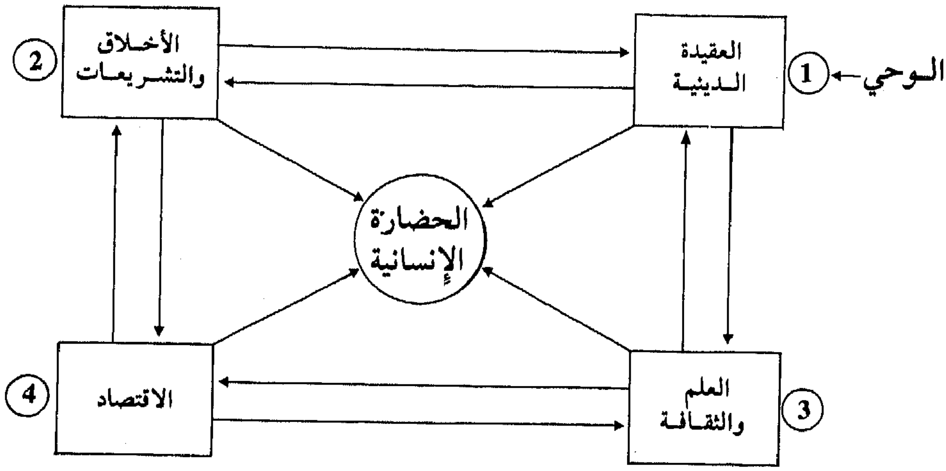
ولكن هنالك جدلية أخرى ليست بأقل تأثير من الأولى ، وهي جدلية رافعة خافضة ، تتقابل فيها شهوات الدنيا والتطلعات الروحية العليا .

وكما أن العلم والأخلاق يتدخلان في تلك الجدلية لِيُصَرِّفَانِهـا في الطريق المستقيم الذي يؤديها إلى مقاصدها الأولى ، فإن تلك المقاصد نفسها تجمع بين البعـدين المادي والـروحي اللذين تتحقق بهما سعـادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أما البعد المادي الذي تجرد من غايته الوجودية ، فإنه يعتمد على نظام وأخلاق تهدف إلى السعادة الدنيوية في مكوناتها المعاشية والأمنيـة والجمالية والترفيهية ، بينما يتخلى عن القيم الروحية أو يعاديها باعتبارها نتيجة لتخيلات الذهن البشري وليس حقيقة في ذاتها .

وأما البعد الروحي كما يفهمـه المسلم ويقتفي به ، فهـو بالعكس بعد حقيقي لا ريب فيه لا ينقص من فضيلة الإنسان وكرامته ، كما يزعمه الماديون في نظرية الاستلاب ؛ بل يزيدها سمواً وبعداً يتجاوز مستويات الحياة الأرضية ، بما فيها من شقاوة وغرور وابتلاء وقصور ويصلها بعالم الحياة الأخروية والسعادة الأبدية الراضية المرضية .

وهكذا تتميز تلك النظرة المُوَحِّدة بين العلم والدين بالشمولية التي تجمع بين مرافق الحياة الدنيوية، وتربط بينهـا كما بيناها في بحوث أخرى ، وكما نشير إليها في الشكل التالي :



يبين لنا هذا الرسم :

أ ــ أن الحضارة الإنسانية بمعناها الشامل تجمع بين أربع مكونات مترابطة فيما بينها :

1 ـ العقيدة الدينية التي تعطي لحياة الإنسان مفهومها ومقـاصدهـا وأهدافها العملية .

2 ـ الأخلاق وهي مجموعـة السلوكات والتشـريعات والنـظم التي تُسَيِّرُ حياة الفرد والمجتمع طبقاً للمقاصد والأهداف الدينية .

3 ـ العلوم والثقافة التي تمثل الوسيلة الإدراكية والتطبيقيـة لتحقيق الأهداف الوجودية وأداء الوظيفة الاستخلافية في الأرض .

4 ـ الاقتصاد الذي يضمن حياة الإنسان الأرضيـة في كل أبعـادها الحضارية والمعاشية والأمنية والجمالية .

ب ـ إن المكونات الحضارية مرتبطة ببعضها : فالأخـلاق تنبع من العقيدة الدينية وتتحقق في الواقع الاقتصادي . كمـا أن الاقتصاد يتصـل بالعلم وبالأخلاق . وكما أن العلم يتأثر بالعقيدة والأخـلاق والاقتصاد ،

وأخيراً كما أن العقيدة الدينية تهيمن على المكونات الأخرى لأنها تحدد أهدافها ومقاصدها ومقاييسها .

كما نستنتج من هذا الرسم أنه إذا كان الهدف من سلوك الإنسان هو تحقيق السعادة الدنيوية ، فإن تلك السعادة لا تكتمل إلا إذا كانت شاملة لمكـوناتهـا، حيث أنه إذا انحـرفت أو فسـدت إحـداهمـا فـإن الهيكـل الحضاري كله يتضعضع ويجر الى فساد المجتمع وشقاء الفرد .

وأخيراً يبين لنا الـرسم أن العقيدة الـدينية تهيمن على المكـونات الحضارية ، وبمـا أن منبعها هـو الوحي ، فـإنها تصـل الواقـع الإنساني الحضاري بالأصول الغيبية التي تحدد وظيفته وتبين طريقه وتقدير مصيره النهائي .

***

الفصل الرابع

فلسفة العلوم الإنسانية

آفاق إسلامية لفلسفة العلوم الإنسانية

إن الأهمية التي نعطيها لموضوع العلوم الإنسانية في عصرنا الحديث ناتجة عن ثلاثة أنواع من الإشكاليات الأساسية التي يتعرض لها الفكر الإسلامي المعاصر :

1 ـ إشكالية فلسفية تنظر إلى العلوم الإنسانية من حيث تطورها العقائدي والمنهجي في الحضارة الغربية المعاصرة .

2 ـ إشكالية عقائدية تنظر إلى كيفيات ونتائج التأثر بالمفهوم العلماني للعلوم الإنسانية في العالم الإسلامي المعاصر .

3 ـ إشكالية اجتهادية تبحث في الآفاق المنهجية والفكرية لأسلمة العلوم الإنسانية .

انطلاقاً من هذه الإشكاليات الثلاث سيكون هدفنا من هذا البحث .

أولاً : إبراز السمات العقائدية والمنهجية التي اكتسبتها العلوم الإنسانية في الحضارة الغربية المعاصرة .

ثانياً : تحليل كيفيات التفاعل الفكري بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي خاصة في ميدان العلوم الإنسانية .

ثالثاً : توضيح المبادىء والمقاييس العقيدية والمنهجية التي تقوم عليها أسلمة العلوم الإنسانية .

1 ـ العلوم الإنسانية وتطورها في الحضارة الغربية

يتعرض هذا الفصل لمقدمات تحليلية حول نشوء العلوم الإنسانية وتطورها في الغرب من حيث أصولها العقائدية واتجاهاتها الفلسفية والمنهجية ونتائجها الحضارية .

1 ـ الأصول العقائدية :

بدأت العلوم الإنسانية تتميز وتتخصص بالنسبة للعلوم الرياضية والطبيعية منذ عصر النهضة الأوروبية ، نتيجة للتصادم العنيف بين ثلاثة عناصر حضارية :

العنصر اليوناني ـ اللاتيني (الروماني) .
العنصر اليهودي المسيحي .
العنصر الإسلامي .

1 -1 - العنصر اليوناني اللاتيني يتميز بالثقافة المادية العلمانية التي تعتمد أساساً على (الإنسان) كمركز للوجود ومنبع للمعرفة ، سواء في أبعاده الجسمية أو العقلية أو حتى الدينية .

تنطلق الثقافة اليونانية من فطرة الإنسان في طبائعه وغرائزه وعلاقاته الطبيعية والجمالية مع الكون ومع البشر .

وتعتمد تلك الثقافة على العقل البشري لاستقصاء الحقائق والغايات الوجودية كما تعتمد عليه لوضع النظم الاجتماعية والمقاييس السلوكية والقوانين الوضعية .

وحتى في اعتقاداتها اللاهوتية تنطلق من الفطرة والعقل ، لتصور الآلهة سواء في طابعها الأسطوري كما يظهر ذلك في المتلوجيا اليونانية ،

أو في طابعها التجريدي كما نجده في فلسفات أرسطو وأفلاطون وغيرهم .

2 -1 - العنصر اليهودي المسيحي يتمثل في الثقافة الدينية التي تعتمد أساساً على مركزية الخالق ورسالة الكتب المنزلة بما تحمله من معتقدات غيبية وتشريعات .

يتميز العنصر المسيحي بخاصيتين :

ـ الازدواجية العقائدية (Dualisme) التي تفصل بين تعاليم الدين والواقع التاريخي كما تعبر عنه القاعدة « لله ما لله ولقيصر ما لقيصر» .

ـ هيمنة الكنيسة كمؤسسة تشريعية بكل ما يفترضه ذلك من قداسة وعصمة وسلطة على الضمائر والسلوكات .

3 -1 - العنصر الإسلامي كحضارة إنسانية منبثقة من رسالة الوحي يتميز بطابعه التوحيدي الذي يجمع بين تعاليم الدين ومكتسبات العقل ، ويربط بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، مثل ما يصل بين الشريعة والدولة ، ويؤلف بين مطالب السعادة في الدنيا وفي الآخرة .

2 ـ التصادم العقائدي بين العناصر الحضارية :

بعد قرون طويلة هيمنت فيها الكنيسة على الأوضاع حدث تفاعل وتنافس شديد بين العناصر الحضارية الثلاث ، ونتج عن ذلك التصادم ما يسمى بالنهضة الأوروبية التي انبعثت في القرون الوسطى مع المغامرات الصليبية ، وازدهرت في القرون السادس عشر إلى الثامن عشر ، ثم طغت لتمتد على العالم كله في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وفي ذلك التيار الحضاري نشأت العلوم الإنسانية نتيجة لذلك التصادم الثلاثي وللتداخل الفكري والتحولات الثقافية والاجتماعية التي حصلت منه .

ـ التصادم الأول وقع بين المسيحية والإسلام حينما كان الإسلام في أوج امتداده وازدهاره يحمل بين أسفاره بشارة الإيمان واستنارة العلم ، وجعل يهدد كيان الغرب المسيحي في دعائمه العقيدية ومعاقله السياسية ، وكانت نتيجة ذلك التصادم أن الحضارة الإسلامية تسربت في المجتمعات الغربية إما مباشرة عن طريق الفتوحات والولاء ، وإما عن طريق الاقتباس الثقافي ، كما يشهد عن ذلك تأسيس المدارس والكليات ، ونشاط الترجمة للكتب العربية ، وبروز الحركات الفكرية والعلمية حتى داخل المؤسسات الرهبانية ، وتواتر البعثات الطلابية للعواصم الإسلامية في المغرب والمشرق .

وبالرغم من عنف الكنيسة في مقاومتها للمد الإسلامي وإثارتها الحقد على ما يحمله من رسالة روحية وفلسفة كلامية ومنهجية عقلانية ، وعلى ما أظهره أو أنجبه من علوم مختلفة ، فإن الحضارة الإسلامية في كل عناصرها العقيدية والعلمية والثقافية تسربت في العالم الغربي ، وتشبع من معينها علماء الغرب المشاهير ، وحتى القسيسين منهم كتوماس الأقوين (Saint Thomas d’Aquin) .

من أهم التأثيرات غير المتوقعة لذلك التفاعل الحضاري ، أن الإسلام ساعد على بعث النهضة العلمانية ، لما كان يفيض به من عقلانية في الفكر ، وعلمية في تعرضه للطبيعة والكون لا تتصادم مع تعاليم القرآن ، بينما تتصادم مع النصوص الدينية التي تقرها الكنيسة . فالمسلمون أخذوا من الثقافة اليونانية ما كان فيها مطابقاً للحقيقة العلمية التي يقرها العقل والدين بينما رفضوا أساطير المتلوجية التي لا تغني من الحق شيئاً ، مثلما رفض الإسلامُ في أصولِهِ العقيدِيَّةِ تحريفاتِ أهل الكتاب .

بكل ذلك زعزع الإسلام قواعد الفكر اللاهوتي الكنسي ، فأثار

حقد الكنيسة على الفلاسفة العقلانيين ، مثل الذين ينتمون إلى ابن رشد وعلى العلماء الطبيعيين مثل غليلي (Galilée) ، وسزفتيوس (Servet) ، الذين ذهب كثير منهم ضحية لمحاكم التفتيش الكنسية (Inquisition) .

ـ التصادم الثاني كان بين التعاليم الدينية التقليدية التي تتمسك بها الكنيسة والفكر العلمي الموضوعي المتفتح للبحث والتحقيق . وجعل الفكر العلمي ينمو ويتوسع على حساب التعاليم البالية التي تنشرها الكنيسة والتي يرجع أصلها إلى تأويلات ونظريات كذبتها الاكتشافات الجديدة لا سيما في ميادين الفلك والطبيعة والإنسان .

ولا زالت الفجوة تتسع بين الفكر الديني المحافظ والفكر العلمي المغامر إلى أن استقلت العلوم الطبيعية عن المراقبة الكنسية ، كما أفلتت العلوم الإنسانية من قبضة اللاهوت ومتاهات المتفيزيقا التقليدية ، فرجعت إلى الإنسان كمركز للوجود ، وقامت على أسس العقل البشري المجرد نابعة منه وخادمة له .

3 ـ الاتجاهات الفلسفية :

بعدما تخلص الفكر الغربي من هيمنة الكنيسة أقام ثورته الملقبة بعهد النهضة والتنوير (Renaissance) متشبعاً في الوقت نفسه بالعقلانية المادية وبالوثنية الأسطورية التي ورثها من اليونان ، وتبنى من بين الآلهة بَطَلَةُ المُقْتَفَى (برُومِيتُوس Promethée) الذي ثار على الآلهة وتحدى قوانينها وانتزع منها (نار السماء) ، رغم تعرضه لنقمتهم وتعذيبهم له .

وهكذا ثار الفكر الغربي على تعاليم الكنيسة وسيطرتها العقائدية وزحزحها إلى هامش العلم والفكر والحياة . ولم يكفه ذلك بل بطش واستعلى مثل برومتيوس ومثل فرعون موسى . فَتَخَبَّطَهُ الوهم حتى ظن أنه لا إله إلا الإنسان ، وأن الإنسان هو الذي خلق الآلهة في تصوره لها ،

فكان من حقه إذن أن يحييها ويميتها . كما يتبين في قول الماديين الدهريين أن الإنسان تَصَوَّرَ وجودَ الآلهة بمجرّدِ الخيال ، وَخَوَّلَهَا صفاتِ الأزلية والكمال ، ثم زعموا في السياق نفسه أنهم قتلوا الله مرة ثانية بسيف الجدل ، بعدما صلبه اليهود في ذات عيسى . وكان موت الله (La mort de Dieu) من دعائم الفكر الفلسفي عند (ماركس ونيتش وسارتر) .

تنازلت ميتافيزيقية اللاهوت ، واستخلفتها فيزيقية الطبيعة لتكون الأرضية التي تبنى عليها علوم الإنسان .

إلا أن هذه الأرضية نفسها تمثل أساساً واهياً تمتزج فيه المادية العلمانية والأسطورة المِيتُولُوجِيّة ، كما يتبين ذلك في سماتها الحضارية وتطوراتها العقائدية وتنوعاتها المنهجية .

4 ـ السمات الحضارية للعلوم الإنسانية في الغرب المعاصر

تعكس العلوم الإنسانية سمات الحضارة التي تنتمي إليها في مكوناتها العقائدية والأخلاقية والثقافية والاقتصادية كما نفصله فيما يلي :

ـ **على المستوى العقائدي** سيطر العنصر المادي العلماني على العنصر الديني ، وطغى على النظرة العامة للوجود وعلى الفكر الفلسفي ، كما هو الحال في النزعات المادية والإلحادية والوجودية والذرائعية ، وفي نظريات الصدفة والحتمية والجدلية والاستلاب وغيرها ، وكلها تتفق على رفض البعد اللاهوتي والروحي ولو منهجياً في تقدير معاني الحياة والكون والإنسان والزمان والمجتمع البشري .

ـ **على المستوى الأخلاقي** ورغم المحافظة الشكلية على بعض التقاليد الشعبية القديمة تحررت الحضارة من خلال السلوكات الفردية والمعاملات والنظم الاجتماعية من تعاليم الدين وتشريعات الكنيسة وتبنت قيماً « إنسانية » جديدة تعتمد على حرية الفرد في الاعتقاد

والسياسة والاقتصاد ، وعلى نوع من الروابط الاجتماعية تجمع بين حرية التنافس وحتمية التعاضد ، كما تتمثل في تعدد الأحزاب ومبادىء الديمقراطية . وأخذت تلك القيم أسماء براقة مغرية كالحرية والمساواة والأخوة والوطنية ، إلا أن تلك المبادىء إذا اعتبرت في واقعها الاجتماعي نراها تُكِنُّ مغالطات خطيرة مثل التنافس الاقتصادي والاستغلال الطبقي والتعصب القومي والتوسع الاستعماري واستضعاف الشعوب والبلدان .

ـ **على المستوى العلمي والثقافي** أعطت القيم والمفاهيم المادية للعلوم طابعاً علمانياً استهلاكياً ، جعلها في خدمة الدوافع الشهوانية والترفيهية أكثر مما جعلها تخدم الإنسان وتزكيه في أبعاده الأخلاقية والروحية .

نتيجة ذلك التناقض المبدئي تقدمت العلوم النظرية والتطبيقية تقدماً هائلاً في استكشاف أسرار الكون وتسخير طاقاته ، فنفذ الإنسان علماً وصناعة في أقطار الأرض والفضاء ، وفي خبايا الكائنات الصغيرة والكبيرة ، وفي دقائق الجزئيات التي تتكون منها الكائنات الجامدة والحية . ولكن الحضارة المادية في كل ما اكتسبته من معرفة علمية ووسائل عملية نسيت الإنسان في معناه الوجودي ، وفي وظيفته الكونية ، وفي طموحاته النفسانية والروحية ، وفي علاقته الضميرية والتكليفية مع الله ، وفي مآله بعد الموت حين تبلى السرائر وتوزن الأعمال في ميزان الحق .

ـ **على المستوى الاقتصادي والمعاشي** تتميز سمات الحضارة المعاصرة في طغيان القيم المادية في مظاهرها الإنتاجية والصناعية والتجارية والاستهلاكية ، على أساس التنافس الفاحش على القوة والكسب والسلطة ، ولعل أخطر ما تتنافس في سبيله الأمم القوية هو صنع الأسلحة المدمرة التي لا تهدد حريات الإنسان وكرامته ومعائشه فحسب بل تهدد وجود الحياة على الأرض .

في هاته الظروف والسمات الحضارية لا يمكن للعلوم الإنسانية إلا أن تسير على حذو التغيرات الفكرية والاكتشافات العلمية والتحولات الذهنية والتطورات الاقتصادية والاجتماعية . وهكذا حادت عن الأصول الدينية ، وتخصصت بالنسبة للعلوم الطبيعية والآلية والتجريدية ، وانتكست في رؤيتها للإنسان ، ووسوست في صدره الاستكبار والكفر والعصيان .

وتوغلت العلوم الإنسانية في البحث عن حقيقة الإنسان ، وبذلت في ذلك وسائل العلم الحديث المختلفة ، ولكنها لم تصل إلى معرفة الإنسان لأنها تجاهلت الحكمة التي جعلت الإنسان يظهر في الأرض وينتشر ، بل اعتبرته نتيجة لصدفة عمياء حولت الطين إلى إنسان والجماد إلى عقل وعرفان .

إذا كان الإنسان قائماً بذاته مستقلاً عن إرادة مسيرة أو حكمة مدبرة لوجوده ومصيره فلم يبق له إلا أن يتصارع مع قوانين الكون وجبروت الدهر ، تارة مسيطراً على الطبيعة بذكائه وإرادته ، وتارة مستسلماً لحتمياتها ، وتارة واثقاً بنفسه متفائلاً (ماركس) ، وتارة بائساً قنوطاً (نيتش ـ سارتر) ، وتارة وجودياً أو ذرائعياً (pragmatisme) ، وتارة منكراً للحقيقة (nihiliste) . . .

5 ـ منهجيات العلوم الإنسانية في الحضارة الغربية

مهما كانت الانتماءات الفلسفية والفروق المذهبية فإن العلوم الإنسانية نشأت وتطورت على أساسين متناقضين ومترابطين في الوقت نفسه :

أساس الدقة العلمية والتحليل الموضوعي الذي توحي به العلوم الرياضية والقوانين الطبيعية والمناهج المنطقية والجدلية .

وأساس المسبقات العقائدية التي يتغلب عليها طابع التخمين التصوري والمتلوجي .

ذلك التناقض جعل العلوم الإنسانية علوماً عرجاء تقف على ساقين غير متوازنين : ساق علمية مستوية وساق وهمية واهية .

أما الانتماء للمنهج العلمي فيتنوع حسب المدارس العلمية التي تعتمد تارة على الرياضيات وتارة على البيولوجية وتارة على جدلية المجتمع . (انظر المقالة حول العلوم الإنسانية في الموسوعة Encyclopedia Universalis بقلم ج.ج) .

وهكذا تختلف المناهج باختلاف مراجعها التخصصية ، منفصلة في وسائلها ، متعصبة في مذاهبها ، متناقضة في غاياتها رغم ما تقوم عليه من حقائق علمية جزئية لا ينكرها العقل ولا الدين .

وأما ما يشوب ذلك المنهج العلماني من وهميات ومسبقات ظنية ، فيظهر في التعليقات والتأويلات التي لا تعتمد على حقيقة علمية ثابتة ولا على تعاليم دينية منزلة كما نبينه في بعض الأمثلة .

المثال الأول نجده في الفكر الماركسي الذي ينطلق من المشاهدة الموضوعية لجدلية المجتمع والتاريخ ، ويحلل العوامل الطبيعية والاقتصادية والسياسية ، ليستخرج منها قوانين تلك الجدلية ، ولكنه في الوقت نفسه يخرج من تلك الموضوعية ليصلها باعتبارات عقائدية تقضي بأن الإنسان الذي هو كائن حي لا يخرج عن قانون الطبيعة كان ضحية لأنواع من (الاستلابات Aliénations) التي قيدته في حياته وطموحاته ، منها الاستلاب الديني الذي أخضعه للآلهة ، والاستلاب الاقتصادي الذي أخضعه للطبقات التي تكسب وسائل الإنتاج ، والاستلاب السياسي الذي أخضعه لصاحب السلطة الدولية .

ما دام (ماركس) يعتمد على المنهج العقلاني الجدلي في استكشاف القوانين التي تسير عليها علاقات البشر في أوضاعهم الاجتماعية ، وفي معاملاتهم الاقتصادية والسياسية ، فلعله يصل إلى حقائق أكيدة في تحليله لكثير من الظواهر الاجتماعية . ولكن ماركس غامر في مجالات التخمين حينما أراد أن يعمم نظريته في جدلية التاريخ كما استنتجها من المجتمع الغربي المعاصر له على التاريخ البشري كله في ماضيه ومستقبله ، وحينما أعطى لتلك النظرية أبعاداً عقائدية وأخلاقية وفلسفية وتطبيقية ليس لها علاقة مباشرة مع الجدلية ولا مع العلم الموضوعي مثلما جادل في عدم وجود الله دون أي برهان علمي أو جدلي : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتابٍ منيرٍ ﴾ [الحج 8/22] .

المثال الثاني نجده في فكرة عالمين طبيعيين معاصرين أحرزا على (جائزة نوبل) تقديراً لبحوثهما العلمية في ميدان البيولوجية الدقيقة هما (جاك منود Jaques Monod) و (ألان جاكوب Alain Jacob) .

كلاهما تخصص في علم الجزئيات العضوية والبيولوجية الكيميائية ، وكلاهما اكتشف معلومات نفسية عن التبادلات المادية والإخبارية بين جزئيات الخلايا البنيوية والتناسلية .

إلى هذا وما داما يشاهدان ويختبران ويرسمان ويحللان الجزئيات والتفاعلات والظواهر البيولوجية طبقاً للمقاييس العلمية ، فإنه لا ينكر لهما الفضل في ذلك . ولكنهما إذا تحولا إلى فلاسفة علمانيين وانزلقا من الحقيقة المشهودة إلى متاهات التخمين وغرور الاستكبار العلماني ، فإنهما حين ذلك يبنيان نظرية شبه علمية تقوم على ساقين إحداهما سليمة والأخرى عليلة . أما الساق السليمة فهي النتائج الثابتة التي يصل إليها العلم في معرفة القوانين البيولوجية والتراكيب العضوية التي يتميز بها

الكائن الحي ، وأما الساق العليلة فهي تجاوز المعطيات العلمية وطرح مسبقات عقائدية وقواعد أخلاقية وسياسية تنتسب للعلم وما هي من العلم في شيء .

فبأي مقياس علمي أو منطقي أو جدلي يسمح (جاك منود) لنفسه أن يحكم بأن هذه الخلية الصغيرة التي تحمل في صبغاتها وجناتها قدرة الإخبار والتمييز والانقسام والتوالد والتصميم الذي يذهب بها إلى صنع الإنسان العاقل هي نتيجة لتفاعلات صدفية تلعب بقوانين الحتمية فينشىء منها الكائن الحي وتقدر فيه عقل (جاك منود) نفسه ؟

وأي حق له بأن يحكم « أن الإنسان يعرف اليوم أنه وحيد في الكون ، وأنه ظهر فيه عن طريق الصدفة ، وأن الكون لا يبالي بآماله ولا بنغماته » .

وأي حق يملكه (جاكوب) حينما يشاهد ذلك النظام العجيب والقدرة التنظيمية الهائلة التي يتصف بها الكائن الحي ، ليقول بأن ذلك يمثل حقاً تصميماً بديعاً ، ولكن ذلك التصميم يستغني عن وجود المصمم المبدع .

المثال الثالث نستخرجه من علم (التحليل النفسي Psychanalyse) الذي اشتهر به (فرويد Freud) وأتباعه . كان من فضل فرود أنه حاول استكشاف العوامل الذاتية والعارضة التي تؤثر في الضمير (ما دون الوعي Subconscien) ، وتظهر آثارها في الأحوال النفسية والسلوك البشري ، وفي هذه المحاولة نوع من المنهجية والعلمية جدير بالاعتبار والتقدير . ولكن فرود حاد عن هذا المنهج حينما تعدى إلى التأويلات العامة ، وحينما عمم بعض الانفعالات النفسية لها علاقة واضحة مع الدوافع الغريزية المضطربة على ميادين الأخلاق والتاريخ

الإنساني والنبوة واللاهوت ، كما لم تكن تفسيراته للأحلام في ذاتها إلا أضغاث أحلام .

وهكذا تاهت العلوم الإنسانية في مآزق الجزئيات ، وفي سراب النظريات العقائدية ، لأنها حاولت في الوقت نفسه أن تتمسك بالحقيقة العلمية ، وأن تنكر الحقيقة الدينية ، وبذلك تقدمت وتأخرت . أما التقدم فقد أحرزته في الاكتشافات العلمية الهائلة في شأن الإنسان وما حوله من الكائنات ، وأما التأخر فهو رجوعها للمعتقدات الوثنية والدهرية الجاهلية ، وبذلك خسرت في الواجهتين لأنها فقدت صلتها بالله ، وغفلت عن معرفة الإنسان نفسه . يقول الأستاذ غارودي « إن العلوم الإنسانية علمتنا كثيراً من الأشياء التي تخص الإنسان ، ولكنها لم تصل إلى معرفة الإنسان » (الوصية الفلسفية لغارودي) .

وأما الغايات التي تجري وراءها العلوم الإنسانية المعاصرة ، فإنها تعكس الاهتمامات الوجودية والانتماءات العقائدية التي تتمثل في التيارات العلمانية والواقعية والوجودية والإلحادية نفسها . . . ولذلك ترجع أخيراً في مظاهرها العملية والتطبيقية إلى تلبية الحاجات المعاشية والدوافع الشهوانية والترفيهية دون الكمالات الأخلاقية والتطلعات الروحية التي تعطي للإنسان معنى وفضيلة وهداية ترفعه إلى مسالك الكمال والسعادة الخالصة في الدنيا والآخرة .

2 ـ كيفيات الغزو الحضاري وانعكاساته
على العلوم الإنسانية في العالم الإسلامي المعاصر

1 -2 - تصادم الحضارات وفقدان التوازن في صالح الحضارة الغربية

بينما كان العالم الإسلامي يتحلل ثقافياً وسياسياً واقتصادياً ، ويتلاشى على هامش الحضارة العالمية ، أخضعت النهضة الغربية في طابعها المادي العلماني ، إلى أن انقلبت الموازين وتوقف المد الإسلامي ثم تقهقر في معنوياته وسلطانه .

نشأت النهضة الأوروبية وتطورت على حساب النفوذ الكنسي ، وذلك رغم (الإصلاحات Reformes) و (الانقسامات المذهبية Schismes) التي تعرضت لها الكنيسة المسيحية في محاولاتها لتجديد مناهجها وتثبيت قواعدها .

إلا أن التقدم العلمي والتكنولوجي السريع والتحولات الاجتماعية التي تصدرت فيها البورجوازية الصناعية والتجارية ، وهيمنت فيها القيم المادية على أساس التنافس الحر بين الأفراد والطبقات والشعوب والقوميات لم تترك للدين نفوذاً مباشراً على الأوضاع والأحداث بل كثيراً ما كانت الكنيسة تابعة وخادمة للمصالح الخاصة والطبقات الحاكمة .

في هذه المرحلة التاريخية لم يجد الغزو الاستعماري التعادل نفسه في موازين القوى الذي عرفه الغزو الصليبي ، فكان التصادم في هذه الكرة في صالح الغرب لما تفوق به في الميادين : العسكرية والنظامية والاقتصادية والتكنولوجية .

نتيجة التصادم الاستعماري على العالم الإسلامي في الميدان

الفكري والثقافي تتلخص في عاملين مترابطين كما فصلناه في الحديث الذي قدمناه أثناء الملتقى التاسع عشر للفكر الإسلامي تحت عنوان (الثقافة الغربية في الميزان) هما : عامل الافتقار الداخلي وعامل الضغط الخارجي .

أما عامل الافتقار فهو الذي جعل العالم الإسلامي المتخلف والمستضعف في حاجة ملحة إلى استيراد ما يزخر به الغرب من تكنولوجيا وأموال ومنتوجات زراعية وصناعية ومؤلفات علمية وأدبية وإطارات فنية وتسييرية . فاندفع المسلمون إلى اكتساب ما يعرضه الغرب عليهم من وسائل وعلوم وأفكار وآلات سواء عن طريق المدرسة الغربية المستوطنة في بلادهم ، وإما عن طريق الهجرة إليها .

وأما عامل الضغط فيتمثل في الغزو الاستعماري نفسه الذي مد ظله وظلاله على العالم الإسلامي ، وفرض عليه سلطانه ومصالحه ، وحاول طمس الأصالة الحضارية ليستبدلها بالثقافة الغربية . أما وسائل الضغط فكثيرة منها النفوذ السياسي المباشر ، وأعمال القمع والاستضعاف ، والتفقير والتجهيل ، ونشر اللغات والمدارس الأجنبية ، والإغراء بالدعاية والوعود الكاذبة .

2-2 - نتائج الغزو الاستعماري

كانت نتيجة التفاعل الثقافي في ميدان الفكر عامة وفي العلوم الإنسانية خاصة هي ما وصل إليها العالم الإسلامي من استضعاف سياسي واستخفاف ثقافي واستلاب عقائدي ، بحيث أن العلوم الإنسانية التي تطورت في العالم الغربي بما تحمله من انتماءات فكرية وغايات ومناهج ، كانت مثل العلوم الرياضية والطبيعية تدرس وتنشر في العالم الإسلامي عن طريق التعليم المدرسي والجامعي ، والكتب والمجلات ، وكل أنواع الإعلام ، كما تشهد على ذلك برامج التعليم وتكوين

المدرسين والأساتذة وترجمة الكتب أو طبع المؤلفات التي غلب عليها طابع الاستغراب العقائدي والفكري .

ولم يكن من حظ المسلمين أن يميزوا في كل ما تزخر به العلوم الحديثة ، بين ما تحمله من حقائق موضوعية وما تجرفه من نظريات وهمية ومغالطات عقائدية ومنهجية خطيرة .

في العلوم الإنسانية التي جاءت بها الحضارة الغربية تيارات فكرية ونظريات منهجية ، تحمل الحق والباطل ، والحقائق والظنون ، وتتفق في أنها تنكر الحقيقة الدينية أو تجهلها .

وتداعت عليها أفكار المسلمين ولهث وراءها كثير من المثقفين ، يحسبونها ماءً ونوراً وما هي إلا سراب وظنون ، تهوي بالإنسان من معارج الحق والعقل إلى حضيض السخافة الحيوانية .

3 ـ آفاق إسلامية للعلوم الإنسانية

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبّاً على وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
[الملك 22/67] .

1 ـ العلوم الإنسانية : مكانتها في الإسلام وأصولها العقيدية

إذا كان الإنسان في النظرة المادية للوجود قد نشأ بفاعل الصدفة العمياء من المادة الصماء ، وأمدته الطبيعة بالبصر والعقل واللسان وتركته حائراً في نفسه ووجوده ، لا يدري من هو ، ومن أين جاء ، وإلى أين يسير ؟ فإن الإنسان في النظرة الدينية له في وجوده سبب ومعنى وغاية ومصير ، خلقه الله في أحسن تقويم ، وأمده بالسمع والبصر واللسان ، وفضله بالعقل ، وكرمه بخلافة الأرض ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماواتِ وَمَا في الأَرْضِ جَميعاً**﴾ [الجاثية 13/45] . وهداه إلى نور الهدى والطريق المستقيم الذي يؤدي إلى السعادة والبقاء والرضوان .

ذلك هو الفرق بين مكانة الإنسان في الثقافة المادية ومكانته في الثقافة الدينية . وإذا كانت العلوم الإنسانية في النظرة العلمانية تخضع لميزان العقل البشري بما يعتريه من غرور وقصور ، فإنها في النظرة الدينية تخضع للمفهوم الأزلي الذي تقره الحقيقة الدينية حاوية ومكملة وهادية لميزان العقل البشري .

ذلك المفهوم الشامل والمتكامل للإنسان هو الذي يحدد للعلوم الإنسانية مقاصدها العلمية ، وغاياتها العملية ، ومقاييسها المنهجية ، ومجالاتها النظرية والتطبيقية .

2 ـ العلوم الإنسانية في غاياتها ومجالاتها :

لكل علم غاية يسير وراءها حتى إذا كانت تلك الغاية هي العلم بذاته ، أما غاية العلوم الإنسانية فهي معرفة الإنسان في طبيعته وغرائزه ، وطموحاته النفسانية ، واستعداداته الذهنية ، وفي علاقاته مع الطبيعة الكونية ، ومع الكائنات الحية ، ومع البشر في روابطهم العاطفية والاقتصادية والثقافية والجمالية . وهدف تلك المعرفة بدورها هو تحقيق سعادة الإنسان في أبعادها المعاشية والنفسانية والاجتماعية والأخلاقية والروحية .

إلا أن مفهوم السعادة ووسائل تحقيقها قد يختلف حسب الاستعدادات الفكرية والانتماءات العقائدية التي تعطي للإنسان ـ أو لا تعطيه ـ معنى في ذاته وغاية لوجوده .

مفهوم السعادة في المنطقية التي عرضناها يعتمد على ثلاثة مراجع تحدد معنى الإنسان وغايات وجوده وتجتمع في النظرة الإسلامية الشاملة لخلق الإنسان ووظيفته الوجودية ومصيره النهائي .

2-1 - **مرجع الغريزة الفطرية** ويتمثل في الدوافع الغريزية الحياتية التي تشترك فيها كل الكائنات الحية وهي :

- دوافع المعاش .
- دوافع الأمن .
- دوافع التناسل .

إلا أن تلك الدوافع الأساسية تأخذ في حق الإنسان أبعاداً جمالية وترفيهية ومعنوية ، تتعدى ضرورات الحياة البسيطة ، وذلك ما تعبر عنه الآية في ذكر الشهوات الترفيهية :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ والْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران 14/3] . وكما تنبه عنه الآية الأخرى في ذكر الشهوات الجمالية والمعنوية :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ ﴾ [الحديد 20/57] .

السعادة على المستوى الفطري هي تلبية الشهوات الدنيوية بدون تطلع إلى الشهوات العرفانية والروحية ، وبدون اعتبار المسؤولية الوجودية التي خلق الإنسان من أجلها وكلف بتأديتها .

2 -2- **مرجع العقل** هو الذي يبحث في العلل والكيفيات والعواقب ، ويحدد الغايات والمقاصد طبقاً للمعطيات العلمية والمصالح الموضوعية ، ثم يدبر المواقف الذهنية والعملية لبلوغ تلك الغايات .

من طبيعة العقل البشري أن ينطلق من المشاهدة والتجربة ، وأن يتعدى حدود المحسوسات ليتعرف عن جوهر الأشياء والغايات الأولى للوجود . ولكنه في محاولته لكشف الحقائق الأولى يصادم حجاب الغيبيات الكبرى ، وهناك تبتلى إرادته بنوعين من الاختيارات . فإما أن يتراجع دون ذلك الحجاب ، وأن يتطاول في معرفة المحسوسات والمشهودات ، وإما أن يصر على المغامرة لمعرفة ما وراء الطبيعة من أسرار وغايات معتمداً في ذلك على معطيات العلم وعلى مناهج الاستدلال والاستقراء .

وقد يتغير موقف العقل حسب تغلب أحد المنهجين الموضوعي والاستقرائي ، ويتراوح فيما بين ذلك من المادية الخالصة إلى المثالية المجردة فيما يفترضه ذلك من مقاصد وجودية وقيم أخلاقية ومبادىء سلوكية تتراوح بدورها ما بين الإباحية الطليقة والتصوف المتفاني .

ومهما كان من خصائص العقل الإدراكية والتحليلية ، فإنه لا ينفذ إلى الحقائق الأولى حتى إذا توصل إلى اليقين بوجود قوة إلٓهية صمدية خالقةً للكون ومدبرة له ، لأن ذات الله وصفاته لا تخضع لمقاييس العقل البشري : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام 103/6] .

3 -2- **مرجع الوحي** وهو ما جاء على لسان الأنبياء والكتب المنزلة التي تنبىء بالحقائق الغيبية وتهدي إلى الإيمان بالله وترشد إلى العمل الصالح .

كما أن المرجع الديني هو الذي يعطي للسعادة معناها المتكامل الذي يربط بين واقع الحياة الإنسانية في الأرض ، بما تشمله من ملذات شهوانية ونفسانية وابتلاءات ذاتية ومادية وتكاليف وظيفية وسلوكية وبين المصير النهائي في الحياة الأخرى بما تعد به من سعادة روحية خالصة أو من شقاء وعذاب .

والمرجع الديني يضع للسعادة قوالبها الأخلاقية وأهدافها الروحية في مرحلتيها الدنيوية والأخروية. فالسعادة الدنيوية لا تنفصل عن التكلفة الخلافية بما تشمله من جهاد واجتهاد وتضحيات وابتلاءات وغرور وقصور ، بينما السعادة الأخروية هي حصيلة الحياة الدنيوية وجزاء التكلفة الخلافية والعبادة ﴿ **قُلْ هِيَ لِلَّذِين آمَنُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف 32/7] .

3 ـ المقاييس المنهجية للعلوم الإنسانية في مفهومها الإسلامي

إذا كانت العلوم الإنسانية في مفهومها الإسلامي تهدف إلى تحقيق الغاية الوجودية والسعادة الإنسانية في مكوناتها الفطرية والعقلية

والروحية ، فإن تلك الأهداف تقوم على مقاييس منهجيـة ، تعكس تلك الغاية في واقعها الأرضي وفي تطلعاتها الأخروية .

تلك المقاييس هي :

ـ الحقيقة العلمية .

ـ الغاية الوجودية .

ـ التكامل بين الأبعاد الإنسانية .

ـ الترابط المنهجي .

1 -3 - **الحقيقة العلمية** على المستوى البشري تتميـز كما بينـاه في فصـل سابق بـالنسبية والتـوسعية والمحـدودية ، وذلـك يجعلها لا تحيط بالحقيقة في ذاتها وفي آفاقها ، مهما كان اعتمادها على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنقل اليقيني والتحليل العقلاني .

إلا أن تلك النسبية في نطاق الوجود الإنسـاني ومكانتـه في الكون وتكلفته الخلافية لا تنقص من قيمتها العملية ما دامت تتجنب الانزلاق في النظريات التخمينية المبنية على الظن والهوى .

الحقيقة العلمية في نـطاق تلك النسبية تجمـع بين ثلاثـة عناصـر مرجعية متكاملة : الواقعية ـ والعقلانية ـ والإيمان بالحقيقة الدينية .

1 -1 -3 - الواقعية هي نتيجة المشاهدة الحسية والتجـربة المبـاشرة كما تشير إلى ذلك كثير من الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى النظر والتدبر في آيات الكون .

ـ في الطبيعة : ﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلى الْإِبِـلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإلى السَّمـاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية 88/17 - 20] .

ـ في تاريخ البشر : ﴿ قُلْ سِيروا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الروم 42/30] .

ـ في المخلوقات الحية نباتاً وحيواناً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ في ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام 99/6] .

﴿ أَلَمْ يَرَوا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إلاّ اللّهُ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل 79/16] .

ـ في الإنسان : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل 78/16] .

وهكذا يدعو القرآن إلى اكتشاف المخلوقات والظواهر الطبيعية وبما فيها من قدرة إلَهية وعلم وحكمة ، تتجلى للعقل بما يملكه من وسائل علمية ، تتراوح ما بين المشاهدة البسيطة والبحوث العلمية الدقيقة .

2 -1 -3 - العقلانية هي ميزان المنطق التحليلي والجدلي المثبت للمشاهدة ، ويعتمد على المناهج الرياضية والآلية والبحوث النظرية والتجريبية التي تدعو إليها آيات كثيرة في القرآن تأمر بالبحث والاستدلال عن أسرار الكون والطبيعة والحياة :

﴿ قُلْ سِيروا في الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . . . ﴾ [العنكبوت 20/29] .

﴿يا أيُّها النّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج 5/22] .

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت 53/41] .

﴿ مَا تَرى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَا وُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسيرٌ . . .﴾ [الملك 3/67 -4] .

تبين هذه الآيات مرحلة أخرى من الاستدلال العلمي عن طريق المنطق والبحث والتحليل لإثبات حقيقة الخالق المدبر الحكيم .

3 -1 -3 - الحقيقة الدينية تشمل عالم الشهادة التي يتحكم فيها العقل وعالم الغيبيات التي لا ينفذ إليها العقل إلا ظناً وتخميناً . وبذلك تجعل العقل في مجراه الكوني الأزلي الذي لا يتصل به إلا إذا اكتمل بمعطيات الوحي .

الحقيقة الدينية هي التي تعطي للإنسان رؤية ذهنية تنقلها له عن طريق النبوة تكشف له أسرار نشأته وغايات وجوده وتكاليف حياته ومقاييس سلوكه وعواقب أعماله ونهايات مصيره . وهي التي تصله إيماناً وعملاً بخالقه .

الحقيقة الدينية ليست نتيجة منهجية استنباطية أو جدلية ، وإنما هي تصديق والتزام برسالة روحية يحملها بشر ، ولكنها تخرج عن مقاييس الطبيعة . وإنما هي تجلي روحاني لحقائق غيبية ينزلها الله على رسله هدىً وبشرى للمؤمنين .

4 -1 -3 - الحقيقة العلمية ترتكز على مشاهدة الواقع والتحليل

العقلاني والوحي النبوي ، وأما الخروج عنها والتوغل في متاهات الظن والوهم ، فإن ذلك يؤدي إلى الغرور والضلال والكفران ، لأن التعرض فيه للأمور الغيبية لا يمكن أن يكون إلا إنكاراً أو تخيلاً : ﴿ **وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ، فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾ [النجم 28/53 -30] .

كما أن القرآن ينهى عن المغامرة التخمينية في عالم الغيب أو في الأمور التي تفلت من الإدراك العقلي :

﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء 36/17] .

﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [الحجرات 12/49] .

إذا طبقنا مقياس الحقيقة العلمية على العلوم الإنسانية فيعني ذلك فتح مجالات البحث فيها على أسس العقل الصحيحة مهما كانت مصادرها وميادينها ، ولو كانت من عند (ماركس) أو (منود) بشرط أن يكون الاستدلال يقينياً لا ظنياً . والقرآن نفسه يستدل قبل أوانه الزمني باكتشاف الكافرين ليدحض جدليتهم الواهية : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء 30/21] .

لقد نجد عند العلماء الماديين والعلمانيين حقائق علمية نقبلها ونعتمد عليها في تقديراتنا وتحليلاتنا لطبيعة الإنسان وسنن البشر في جميع أبعادها النفسية والنظامية والتاريخية والاقتصادية ما دامت سائرة في

طريق العلم والمنطق السليم ، ولكننا لا نتبعها في متاهاتها العقائدية وتأويلاتها المذهبية والانفعالية والشهوانية فهنالك ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء 114/4] .

2 -3 - **المقياس الثاني هو مقياس الغاية الوجودية** ويعني ذلك أن تصورنا ودراستنا للعلوم الإنسانية تنطلق في الوقت نفسه من المعطيات العلمية في طابعها الواقعي والموضوعي ، ومن الغايات الوجودية التي تحددها تعاليم الدين ، وذلك لأن معرفة الإنسان في مكوناته التركيبية ووظائفه البيولوجية وغرائزه الفطرية وطموحاته النفسية ليست جميعها إلا وسيلة إدراكية وعملية للقيام بالوظيفة الوجودية التي خلق الإنسان من أجلها ، والتي تربطه بإرادة خالقه ، وتهيء عقله وتربي سلوكه ، وذلك ما يثبته الإسلام عقيدة وخلقاً ومعاملات وعبادات .

الغاية الوجودية تعطي للعلوم الإنسانية سمات عقيدية وأخلاقية وعملية ، تختلف عن النظرة العلمانية التي تعتبر الإنسان في طبيعته وطبائعه ، كأن تلك الطبيعة هي المقصود بالذات ، ويعني ذلك أنها تهدف إلى إرضاء نزعاته الشهوانية ومطامحه الترفيهيّة والجمالية .

وإذا كان للنظرة العلمانية لعلوم الإنسان هدف عملي ، فهو أن تغير الإنسان في قاعدته الذهنية والعقيدية ، وأن تكيفه مع ما حوله في الطبيعة والمجتمع ، طلباً لسعادته الدنيوية ، ولو كان في ذلك التغيير فساد وانحراف وإغراء واستلاب .

إذا بحثنا في علم النفس مثلاً نجد أن الغاية في النظرة المادية العلمانية هي توفير الوسائل المادية والصحية والنفسانية التي تضمن توازن النفس وراحتها ، أو تعيد لها ذلك التوازن ، انطلاقاً من معرفة العوامل

الذاتية أو البيئية التي تحفظ أو تغير مزاجها . وينظر التحليل النفسي إلى الإنسان من حيث غرائزه وأهوائه وميوله ليرضيها لا ليعدلها ، وقد يعتبر التحكم في تلك الغرائز والميول ومحاولة مخالفتها بمبرر العادات والمعتقدات قد يؤدي إلى الكبت ثم الاضطراب ثم المرض المتمكن في العقل .

أما النظرة الدينية لعلم النفس فلها بُعْدان :

ـ بُعْدٌ صحي يعمل من أجل سلامة التوازن النفسي ، وذلك بتعديل مزاجه الداخلي ، وبتحسين مؤثرات البيئة الطبيعية والبشرية (ومن ذلك تحريم الخمر والميسر والزنا والدعوة إلى التراحم والصبر والحق . . .) .

ـ وبُعْدٌ أخلاقي يهدف إلى ترقية النفس وتزكيتها الخلقية اعتباراً بأن النفس قوة ضميرية وإدراكية وسلوكية مسؤولة في ذاتها وعن ذاتها ومعرضة للوسوسة والانحراف : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاها فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاها** ﴾ [الشمس 91/7-10] .

من أجل ذلك كان التحكم في دوافع النفس الشهوانية من أهداف التربية النفسانية والأخلاقية ؛ لأن تركها لأهوائها البدائية وميولها الغريزية تمنعها من الازدهار الخلقي والسمو الروحي :

﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ . .** ﴾ [يوسف 12/53] .

﴿ **وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [النازعات 79/40-41] .

أما الغاية النهائية من التربية النفسية فهي السعادة الخالصة المطلقة التي تتمثل في الرضا والاطمئنان : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي**

إلى رَبِّـكِ رَاضِيَـةً مَـرْضِيَّـةً ، فَـادْخُلي فِي عِبَـادي ، وَادْخُلِي جَنَّتي ﴾ [الفجر 89/27 - 30] .

ونجـد الملاحـظة المبدئيـة نفسها في علوم الاجتمـاع ، حيث أن النظرة العلمانية تنطلق من الواقع البشري ، وتهدف إلى معرفة القـوانين الجدلية التي تسير وتغير المجتمع من حيث طموحات الإنسان المعـاشية والترفيهية والأمنية والشرفية ، ومن حيث علاقاته الضرورية مـع غيره من الأفراد والفئات ، ليستخرج من تلك الطمـوحات ومن تلك الضـرورات نظماً وتشريعات ومناهج تكوينية وتسييرية ووسائل اقتصادية ونظامية .

وإذا كانت هنالك غايـة للعلوم الاجتماعيـة فهي أن تضمن سعادة الفرد بتحقيق التوازن الاقتصـادي والسياسي في المجتمـع ، وبمحاربـة أسباب الفقر والبؤس والتخلف الحضاري .

وأما النظرة الدينية فإنها تنطلق من الأهداف والغـايات التي تقـرها التعاليم السماوية للوجود الإنساني في الأرض وللأمة في رسالتها الدينية وواقعها الدنيوي .

وبينما تتمسك النظرة المادية بجدلية التاريـخ وحتمية الأحـداث ، فإن النظرة الدينية تعتبر سنة الله التي يخضع لها تـاريخ البشـر ، ولكنها تضع المسؤولية في تصرف الإنسان : **﴿ إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّـرُ ما بِقَـوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾** [الرعد 11/13] .

وإذا كان تحسين الواقع الدنيوي في كل أبعاده المعاشية والترفيهية والحضـارية هـدفاً مشـروعاً ، فـإن الهـدف الأسمى يكمن في الارتقـاء الروحي وتأدية الأمانة الاستخلافية والدينية .

أما التشريعات والإرشادات التي تتناول ميادين المعاملات والسعي في العمـل الاقتصادي في الإنتـاج والتوزيـع ، والاستثمـار والتعـاون ،

والتملك وتأسيس الأسرة ، والتوارث ، والتعامل ، فإن كل ذلك يهدف إلى تحقيق سعادة البشر في الدنيا ، ويخضع لتعاليم الدين ومقاصده الأولى .

3-3 - المقياس الثالث هو التكامل العقيدي بين الأبعاد الإنسانية :

تكاد العلوم الإنسانية في انتماءاتها المادية والعلمانية تقتصر على تلبية الحاجات المعاشية والترفيهية دون القيم الروحية ؛ بل إنها تخضع الأبعاد الأخلاقية والجمالية والفكرية إلى الهدف الحياتي الدنيوي .

ذلك ما نجده مثلاً في مفهوم الصحة الذي يشمل صحة البدن والوظائف العضوية ، وراحة النفس والتلاؤم الوجداني مع البيئة الطبيعية والبشرية ، ولكنه لا يتعدى إلى صحة السلوك الخلقي وصحة العقيدة الروحية ، التي يكتمل بها الإنسان ككائن حي عاقل ومسؤول .

أما النظرة الإسلامية للإنسان فإنها تعتبره في شموليته الوجودية ، وفي تكامل أبعاده التكوينية وترابطها :

(1) أما البعد الحيواني فيكمن في غريزة النفس وما تطلبه من الحاجات الضرورية كالمعاش والأمن والتناسل .

(2) وأما البعد العقلي فيعطي للبعد الحيواني امتداداته الترفيهية والحضارية التي يتميز بها الإنسان فيما أعطاه الله من قدرة إدراكية وتعبيرية وإبداعية .

هذان البعدان لا تكتمل بهما إنسانية الإنسان إذا لم يكن لهما امتداد خلقي وديني ، كما تعبر عنه الآية في وصف المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون 4/63] .

(3) وأما البعد الأخلاقي فيجعل الجسم والعقل في خدمة الغايات الوجودية وتكاليف الخلافة الأرضية ويربط الإنسان نفسياً وعملياً وروحياً بالمجتمع ، ليضمن فيه علاقات الأخوة والتراحم والإحسان والعدالة والقوامة .

(4) وأخيراً البعد الروحي هو الذي يصل المخلوق بالخالق برابطة الإيمان والتقوى والعبادات .

ذلك التكامل بين الأبعاد الإنسانية يعني أن العلوم الإنسانية لا تستغني في تقديراتها للإنسان في حياتها الأرضية عن بعد من أبعاده الخلقية ، لأنها إذا اقتصرت على البعد المعاشي والشهواني ، فإنه لا يتعدى درجة الحيوان : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ** ﴾ [محمد 12/47] . وإذا اقتصرت على البعد العقلاني وجعلته في خدمة الشهوات المادية فإنه لا يتعدى حدود الحياة الدنيا ولو شملت في ذلك كل المظاهر الحضارية والمعاشية ، ولا فرق في ذلك بين المجتمعات الجاهلية القديمة والمجتمعات العلمانية الحديثة ، رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي .وإغراءاتها الثقافية والترفيهية ، وادعاءاتها الأخلاقية ، لأن الأخلاق إذا لم تخرج عن الطابع العلماني فإنها ومهما تسامت واجتهدت في خدمة الإنسان ليس لها قيمة متعالية في ذاتها ، كأنها تخدم المصلحة الظرفية الزائلة وتغفل عن المصلحة الأخروية الدائمة : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ﴾ [إبراهيم 18/14] .

4-3 - المقياس الرابع هو الترابط المنهجي

يعني ذلك أن البحث في العلوم الإنسانية لا يقتصر على إحدى

الاختصاصات العلمية ، ويتعصب لها كما هو الحال في مختلف النظريات العلمانية التي تعتمد تارة على العلوم الرياضية ، وتارة على المنهج الجدلي ، وتارة على العلوم البيولوجية والآلية .

الإسلام يجمع بين مناهج التحقيق والاستدلال ، لأن الرؤيا المقصورة أو الجانبية لا تؤدي إلى الحقيقة الكاملة التي تحتاج إلى ثلاثة أنواع من الاستنارات ، وهي العلم اليقيني والهداية التوجيهية والوحي الذي ينبيء بالغيب . ذلك ما تعبر عنه الآية ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتابٍ مُنيرٍ** ﴾ [الحج 22/8] .

(1) **أما العلم الموضوعي** فيعتمد على عنصرين مترابطين متكاملين للمعرفة :

ــ **الواقعية** وهي مشاهدة الأشياء بالحواس والتجربة ، وتمتد إلى كل أنواع العلوم الطبيعية والبيولوجية والبشرية .

ــ **العقلانية** وهي استعمال الوسائل والمناهج المساعدة سواء كانت مجردة كالرياضيات ، أو آلية مثل الحسابات الإلكترونية ، أو منطقية كقواعد الجدل السليم ، والاستدلال القرآني كثيراً ما يخاطب العقل الجدلي ويدعوه إلى كشف الحقيقة عن طريق التدبير والتفكير والبحث العلمي .

(2) **وأما الهداية** فهي نوع من الإدراك الفطري أو الإلهامي الذي لا يخضع للتدبير العقلاني الموضوعي ، وإنما يستقر في الذهن بدافع الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، فقدر أو هدى ، أو بدافع الإلهام الإلهي الذي هو نور روحاني ﴿ **يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النور 24/35] .

(3) **وأما الكتاب** فهو مجموعة التعاليم التي أنزلها الله على

الرسل : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة 185/2] . لتكون دستور العقل ومنهاج العمل .

والتعاليم الدينية المنزلة تنبىء بالغيبيات التي لا ينفذ إليها العقل ، وترسم للوجود أهدافه ، وللعلم مقاييسه ، وللعمل حدوده ومقاصده .

وتنطبق تلك المنهجية القرآنية على كل أنواع العلوم الإنسانية ، كما يمكن لنا اليوم أن نضبط قواعدها وغاياتها ومناهجها ، وكما كان العلماء المسلمون قديماً يقتفون بها سواء في الاجتهاد الفقهي ، أو في العلوم الطبيعية ، أو في الفلسفة ، أو في التاريخ وعلوم الإنسان .

ولنقتصر من بين الأمثلة الكثيرة التي يمكن عرضها على منهجية ابن خلدون في علم التاريخ والمجتمع ، حيث نجد الروابط الوثيقة بين الواقعية والعقلانية والتعاليم الدينية ، وذلك بغض النظر عن مدى قصوره أو توفيقه في استقصاء المعطيات التاريخية والعلمية . فقد اعتمد على الواقعية في عرضه للأحداث كما عاشها أو سمعها أو نقلها بعد تدقيقه لمصداقيتها ، كما اعتمد على العقلانية في تحليله للعوامل والأسباب الموضوعية التي تؤثر في مجرى التاريخ وتحولات المجتمع وتطورات الحضارة ، وأخيراً جعل الأحداث المشهودة والأسباب المعقولة في سننها الأزلية التي تخضع لمشيئة الله وحكمته ، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها ، مالك الملك ومسير الأقدار .

لم نعط هذا المثال ادعاءً بأن المنهج الخلدوني لعلم التاريخ يمثل الطريقة المثالية التي يمكن تبنيها والاقتفاء بها ، وإنما أردنا أن نبين القاعدة الأساسية التي يعتمد عليها المسلم في تفسيره للأحداث والظواهر في علم التاريخ ، وفي تصوره المنهجي والعملي لعلوم الإنسان .

4 ـ مجالات العلوم الإنسانية :

تتعرض العلوم الإنسانية لحكم الدين في غاياتها ومقاييسها الأخلاقية . والعلوم الإنسانية التي يدعو لها الدين كعلوم ضرورية تهدف إلى استكشاف الحقيقة البشرية وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية ليس لها حدود ، لا من ناحية المحتوى ، ولا من ناحية النوع ، ولذلك لا يمكن حصرها لا في مواضعها ولا في مجالاتها الخاصة .

وأما الترتيب الذي نعرضه للعلوم الإنسانية فلا يمكن له أن يكون نهائياً ولا مثالياً ، وما هو إلا إبراز بعض الأمثلة من مجالات لا تحصى .

1 ـ **من العلوم النظرية** التي تهدف إلى المعرفة وتبحث عن الإنسان من حيث كيانه وطبائعه وعلاقاته مع الكون والكائنات :

ــ نشأة الإنسان الأولى على ضوء التعاليم القرآنية وعلى ضوء العلوم البيولوجية والجيولوجية .

ــ بيولوجية الإنسان من حيث أطواره الخلقية ، وخلقته التركيبية ، ووظائفه الطبيعية ، واستعداداته النفسانية والعقلية ، ودوافعه السلوكية .

ــ عقلية الإنسان من حيث أجهزته العصبية ، وقدراته الذهنية والفكرية والإبداعية والتصورية والتعبيرية .

ــ روحية الإنسان من حيث تطلعاته الفطرية لاستكشاف أسرار الوجود البدائية والنهائية ، والتي تدفعه إلى البحث عن حقيقة الله والاتصال به روحياً وعملياً .

ــ علاقات الإنسان بالبيئة الطبيعية والبشرية والحضارية .

ــ علاقات الإنسان بالمجتمع في مظاهره الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية .

2 ـ **من العلوم التطبيقية** وهي العلوم التي تهدف عملياً إلى تغيير أو

إصلاح الأحوال الذاتية والظروف البيئية طبقاً للغايات الوجودية والمقاصد الدينية :

ـ علوم الصحة والتطبيب التي تنظر إلى الإنسان من حيث يصح أو يزول عن الصحة في أبعادها الجسمية والنفسية والأخلاقية والروحية .

ـ علم الأخلاق في مناهجها التكوينية والتربوية والسلوكية .

ـ العلوم السياسية والنظم الاقتصادية .

ـ العلوم التطبيقية في مرافق العمران كالفلاحة والصناعة والتجارة والمواصلات والبناء والدفاع .

ـ القوانين والتشريعات .

ـ العبادات التي تصل الإنسان بخالقه ، عقيدة وعبادةً ، وسلوكاً ورجاءً في لقائه ورضوانه .

3 ـ **العلوم المساعدة** ، وهي العلوم التي تستخدمها العلوم الإنسانية في بحوثها ومقاييسها وتحليلها واستنباطاتها ومنها :

ـ العلوم المجردة كالرياضيات والفيزياء والآلات الحاسبة .

ـ العلوم الطبيعية كالكيمياء والجغرافيا والبيولوجيا والفلك .

ـ العلوم التطبيقية وهي التكنلوجيا في جميع أنواعها .

ـ العلوم التسييرية كالإدارة والتخطيط والإعلام .

ـ العلوم المنهجية كالمنطق والجدل .

الخلاصة

إن العلوم الإنسانية في طابعها العلماني الحديث ورغم الاكتشافات الخارقة والمكتسبات الهائلة التي أحرزت عليها أدت من حيث أبعادها الأخلاقية والروحية والإنسانية إلى متاهات عقائدية تتمثل في سلبيات الحضارة المادية المعاصرة . ذلك لأنها سلبت الإنسان من مكوناته الأساسية التي ترتفع بها فطرته البشرية ، وتعتدل بها نفسيته ، وتتزكى بها عقليته ، ويتسامى بها ضميره وروحه .

ولما انفصل الإنسان عن رابطته الدينية التي تعطي لوجوده معنىً ومغزىً ، أصبح يتخبط بين جدلية المادة ، وتلاعب الصدفة ، وطغيان الحتمية ، وعدمية المصير ، في حياة كدرة مسدودة الآفاق ، تشقى في سبيل الشهوات الزائلة التي تحجبها عن الحياة الموعودة ، يتمنى الكافر أنها تنتهي في ظلمة الأنعام حين يقول ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ [النبأ 40/78] .

تسربت تلك المفاهيم مع تسرب الثقافة الغربية المادية العلمانية في حياة المسلمين الفكرية والأدبية والسياسية والاقتصادية فصاروا يَجْرون وراءها لاهثين لما تبديه من مظاهر مغرية لماعة ﴿ **كَسَرَابٍ بقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً** ﴾ [النور 39/24] .

إن العلوم الإنسانية المعاصرة تحمل حقائق علمية لا تحقر ، ومكتسبات تجريبية لا تنكر ، كما فتحت آفاقاً واسعة للفكر والتطبيق ، ولكنها يشوبها قصور منهجي ومغالطات عقائدية خطيرة تتجاهل في الإنسان أسمى ما فيه من قيم روحية وفضيلة أخلاقية .

أما الآفاق التي يفتحها الإسلام للعلوم الإنسانية فإنها تنطلق من المفهوم الأعلى للإنسان الذي خلقه الله من مادة الأرض وأنبته منها ،

ونفـخ فيه الـروح الإلّهية ، وفضله بـالعقـل والعلم ، وكـرمـه بمسؤوليـة الخلافة الأرضية ، ووعده بـالخلود والرضـوان في عالـم الحق واليقين . ومن ذلك المنطلق تتكامل سمات العلوم الإنسانيـة وتتلاءم منـاهجها في آفاقها الواسعة السامية التي تستنير في الوقت نفسه بحقائق العلم وحقيقة الدين .

***

الفصل الخامس

العلم في الحضارة الإسلامية

1 - العلم ونشأة الحضارة الإسلامية

العلم في الحضارة الإسلامية

برز الإسلام في تاريخ الإنسانية كدين كامل خاتم للرسالات السماوية السابقة ، ومع أن الدين الإسلامي كان أساسه الوحي المنزل ، فإنه نشأ ملتصقاً بالواقع البشري ، ومغيراً لذلك الواقع : ﴿ **هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإنْ كَانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلَالٍ مُبينٍ** ﴾ [الجمعة 2/62] .

واتخذ الوحي منهجاً ربانياً يتماشى مع المراحل الزمنية التي تمر عليها نشأة الإسلام الأولى .

كان الوحي في بادىء الأمر يخاطب رجلاً بشراً اصطفاه الله ليكون خاتم الأنبياء ليهيئه ويعلمه ويعده لمسؤولية التبليغ :

ـ ﴿ **اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ** ﴾ [العلق 1/96] .

ـ ﴿ **يَا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ [المدثر 1/74 -5] .

ـ ﴿ **إنّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقيلاً** ﴾ [المزمل 5/73] .

ثم يخاطب بعد ذلك جماعة من المؤمنين ، وهم في غربتهم

الأولى دخلوا في الإسلام سراً وعلانية ، بين أقوام أصروا على إبادتهم وإرجاعهم للشرك والضلال ، ليعلمهم أصول الإسلام وأخلاق الإسلام ، ليكونوا قدوة دائمة للذين من بعدهم . كما يخاطب المشركين والوثنيين الذين كانوا في صدمتهم الذهنية يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ، ليهديهم للحق ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

ثم في العهد المدني يخاطب أمة تكاملت قواعدها العقيدية والنظامية والتشريعية، ليجعلها أمةً هادية للإسلام شاهدةً على الناس ، لتنشر فيهم حقيقة الإيمان ورسالة الإسلام .

أما منهجية التعليم والتكوين للإنسان المسلم ، فتتجلى في القرآن وهي تخاطب العقل المتفتح الواعي ، وذلك من أول الآيات التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ اقْرَأْ باسْم رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق 96/1 - 5] .

هكذا يخاطب الوحي رجلاً أمياً في أول درس يتلقاه في مدرسة الإيمان . وكم في ذلك الدرس من عبرٍ وحكمٍ . إنها تضع أول حبل إيماني وعقلاني يصل الخالق بالمخلوق ، فتجعل القراءة والكتابة أساساً لتلك الصلة ، وتجعل خلق الإنسان نفسه برهاناً ودليلاً لتلك الصلة . الأمر بالقراءة هو وضع الأساس العلمي لمعرفة الخالق ووعي كتابه . ولا تكون القراءة والعلم والإيمان إلا باسم الله ، لأن الله هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وفضله بالعقل ليقوم بتكاليف العبادة والخلافة التي خلق من أجلها وحُمِّلَ بها .

ومعرفة الإنسان لله تبتدىء بمعرفة الإنسان لنفسه ، ليشهد فيها معجزة الخالق الذي أنشأه وصوره في علقة صغيرة لا تراها العين ، وجعل فيها قوة الحياة والنمو والإدراك والإبداع .

هكذا تفتح الآيات الأولى من القرآن أبواب العلوم الأساسية ، وهي :

علوم التوحيد .

علوم الإنسان والطبيعة .

علوم القراءة والكتابة .

نجد المنهج التكويني للإنسان المسلم نفسه في كثير من الآيات القرآنية ، ولا سيما تلك التي نزلت بمكة في فترة النشوء وهي مدرسة الإيمان قبل أن تكون في الفترة المدنية مدرسة الإسلام . وتدعو تلك الآيات إلى التدبر فيما خلق الله في الكون من أجرام يحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، ومن كائنات حية نحسبها بلهاء وهي تعلم صلاتها وتسبيحها ، ومن طاقات باطنة وظاهرة سخرها الله للإنسان ، ومن آيات في الإنسان نفسه .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق 5/86] .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ إلى طَعامِهِ ، أنّا صَبَبْنا الْمَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنا فِيها حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتوناً وَنَخْلاً ، وَحَدائِقَ غُلْبا ، وفاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتاعاً لَكُمْ وَلأَنْعامِكُمْ ﴾ [عبس 24/80 - 32] .

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإلى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية 17/88 - 20] .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً ، وَخَلَقْناكُمْ

أَزْواجاً ، وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً ، وَجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً ، وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَباتاً ، وَجَنّاتٍ أَلفافاً ﴾
[النبأ 78/6 - 16] .

تفتح هذه الآيات الموجزة أبواباً واسعة لعلوم الطبيعة والإنسان ، علوم الأرض وعلوم الحياة ، وعلوم النفس وعلوم الاقتصاد ، وعلوم الفلك وعلوم الطقوس الطبيعية ، وعلوم النبات والحيوان ، وعلوم الإنسان في أبعاده الحياتية والنفسانية والعقلية .

آيات أخرى تدعو الإنسان للتعمق في معرفة أسرار الكون والحياة والحيوانات والمجتمعات البشرية وتاريخ الأمم ، كثيراً ما يمر عليها القارىء وهو غافل عما تحمله من مناشدة للتأمل والبحث في ميادين من المعرفة ما فتىء علماء العصر الحديث يلهثون وراءها وسنقتصر على ذكر بعضها .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنونٍ ﴾
[الحجر 15/26] .

إن النظريات العلمية الحديثة التي تبحث عن ظهور الحياة والإنسان في الأرض توصلت عن طريق المشاهدة العلمية والاستقراء ، ونوع من التصور الحدسي إلى الاعتقاد بأن الحياة كانت نتيجة التفاعل الطبيعي بين العناصر الأولية المتواجدة على ظهر الأرض. ورغم أن تلك النظريات لها مواقف متناقضة حول الأسباب الأولى التي أخرجت الحي من الميت ، فإنها تحمل بعض الحقائق العلمية التي يمكن الاعتماد عنها وهي :

ــ أن المادة العضوية التي يتكون منها الكائن الحي تتكون من العناصر الأولى وهي :

ـ المواد الأرضية المعدنية البسيطة مثل (O - Ca - F - P - C) أو المركبة مثل الأملاح المختلفة (كاربونات ـ سولفات . . .) .

ـ الماء (H_2O) .

ـ الهواء بما يحمله من غازات : N - O .

ـ الطاقة التي تتكون من أشعة الشمس الحرارية والنورية .

ـ أن الكائنات النباتية سواء البسيطة (ذات الخلية الواحدة) أو المركبة (كالأعشاب والأشجار) تضع المادة العضوية مباشرة من المواد الأرضية والماء والهواء والطاقة الشمسية ، بينما تحتاج الكائنات الحيوانية إلى المادة العضوية التي يصنعها النبات زيادة على ما تأخذه مباشرة من المعادن الأرضية والماء والغازات الهوائية .

هذه المعطيات العلمية المحققة تكشف لنا عن بعض أسرار الآية فإذا كان الصلصال يعبر عن المادة الأرضية المعدنية ، فإن الحمأ المسنون يعبر عن الماء الذي تراكمت فيه المادة العضوية البدائية التي صنعتها الكائنات النباتية ، وهذا المعنى يصل هذه الآية بآية أخرى تعبر عن أسرار النشء ﴿ **واللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً** ﴾ [نوح 17/71] .

﴿ **ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ** ﴾ [فصلت 11/41] .

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَروا أَنَّ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُما** ﴾ [الأنبياء 30/21] .

توصلت النظريات العلمية بما تحمله من حقيقة مشهودة إلى الاعتقاد بأن الأجرام السماوية بما في ذلك النجوم والكواكب والأقمار تنشأ في سديم ـ أو دخان ـ يتكون من الجزئيات الذرية ، بما تحمله من طاقة كونية هائلة تجعلها تتجمع ثم تنفصل عن بعضها لتكون النجوم ، ثم من النجوم الكواكب والأقمار . وهكذا يعتبر في النظريات العلمية الحديثة أن

الشمس والأرض الآن هي كوكب من الكواكب ، والقمر والكواكب الشمسية الأخرى تكونوا من النجم الشمسي الأول ، واتخذ كل منهم فلكاً يسير فيه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلَ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ ﴾ [يس 40/36] .

﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذوا مِنْ أَقْطارِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذوا لا تَنْفُذونَ إلاّ بِسُلْطانٍ . . . ﴾ [الرحمن 33/55].

تلك آية عجيبة لم يكن للمفسرين القدامى أن يكتشفوا من أسرارها ما كشفته اليوم علوم الفلك وتكنلوجية الفضاء وتسخير الطاقات الوقودية . ذلك السلطان هو سلطان العلم الذي يخوله الله للإنسان ليبين له آياته في الكون وليعجزه بما وراءه من آفاق لا يصل إليها علمه ونفوذه : ﴿ وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾ [الإسراء 85/17] .

﴿ قُلْ سيروا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت 20/29] .

هذه الآية تدعو للبحث في نشأة الكون وظهور الحياة كم غفل عنها المسلمون وسارع إليها أقوام آخرون تلبية لما يحمله الإنسان من فطرة استطلاعية واستنفاعية ، ساروا وراءها وهم بحقائقها كافرون ، وتركها المسلمون وهم بالسعي وراءها مأمورون.

لم يكن هدفنا من الاستشهاد بهاته الآيات أن نعجز أصحاب العلم ، ولا أن ندعي أن القرآن يعلمنا الفلك وعلم الأجنة وتشريح الجسم ، وإنما نريد أن نؤكد أن القرآن يأمرنا بدافع مزدوج يشترك فيه الإيمان والمصلحة الدنيوية أن نستعمل الملكة العقلية التي أودعها الله في الإنسان ، ليستكشف قوانين الكون ، ويستخدم طاقاته الظاهرة والكامنة ، وليكبر الله على نعمة العلم ، وعلى ما سخر له في الأرض وفي السماء .

2 - الحضارة الإسلامية
وسماتها العلمية

الحضارة الإسلامية وسماتها العلمية :

من المستشرقين من يحكم على الحضارة الإسلامية بأنها لم تكن حضارة علمية بأتم معنى الكلمة ، وإنما تعرض المسلمون لبعض العلوم الرياضية والطبيعية خدمة لعلوم الفقه والعبادات . يقولون مثلاً إن المسلمين اعتنوا بعلوم الفلك والأرصاد لحاجتهم إلى معرفة المواقيت التي تقام فيها العبادات كالصوم والصلوات والحج ، وأنهم اعتنوا بعلوم الحساب كعلوم تابعة لعلوم الفرائض وتحديد المواريث ، وهذه النظرة المقصورة تجهل أو تتجاهل تراث الحضارة الإسلامية العظيم .

ولكن من المسلمين أنفسهم من وقعوا في خطأ لا يغفر وهو الاعتقاد بأن العلم الذي يأمر به الله ويدعو إليه الإسلام يقتصر على العقائد والتشريعات . هذا الخطأ الذي يتميز به علماء الانحطاط ناتج عن نزعة كسولة تفصل بين النقل والعقل ، وبين علوم الدين وعلوم الدنيا . أولئك الناس يمثلون نوعاً من الفكر المتحجر المنغلق على نفسه ، وهم الذين أعطوا لكلمة العلم معنى ضيقاً يقتصر على حفظ القرآن ، وما يتبعه من سيرة وحديث وفقه من دون التدبر فيما يدعو إليه القرآن والسنة والاجتهاد السلفي من علم شامل وعمل حكيم .

لعل النهضة الإسلامية المعاصرة مع كل ما يتحداها من ضغوط خارجية ومعاكسات داخلية ترجع بنا إلى تعاليم الإسلام الأصيلة لا مبتورة ولا محقورة ولكن مهيمنة وشاملة .

لقد نجد العبرة السامية في الحضارة الإسلامية الأولى التي انطلقت من العقيدة الإيمانية التي تعتبر الإنسان في كيانه المتكامل الجامع بين

المسؤولية الدنيوية بما تقتضيه من علم وعمل ، وأخلاق والتزام ، والتكلفة الدينية بما تقتضيه من تقوى وعبادات .

في الأيام القليلة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اكتملت العقيدة ، وتأسست القواعد النظامية والتشريعية للدولة والأمة كما تقرأ الآية :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة 3/5] .

وضعت أسس الأمة ، وانتصرت الدعوة الإسلامية ، وانطلقت من جزيرة العرب ، لتمتد إلى ما حولها من الأمم داعية إلى الله ومبشرة بنوره .

ولم يمر عن ذلك قرن إلا واتسعت رقعة الإسلام من فرنسا إلى حدود الصين . لم يكن ذلك المد فتحاً بالرماح والسيوف إلا في حالات الضرورة التي يدعو لها الاندفاع للحق والدفاع عن العقيدة . إنما كان الفتح يعتمد أساساً على قوة الإيمان ، وشدة العزيمة ، ووضوح الرسالة التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

كانت كل قبيلة أو أمة تدخل في الإسلام تصبح منه وإليه . وهكذا برز ذلك الحادث التاريخي العظيم الذي هو تأسيس أمة وحضارة ، توحدها عقيدة الإسلام ، وتزدهر فيها ثقافة علمية متقدمة ومتفتحة ، تربط الأجناس والشعوب ، وكانت لغة القرآن فيها لسان الدين والعلم والمعاملات .

مهما تصدت تلك الحضارة لأنواع مختلفة وخطيرة من التناقضات الداخلية والتحديات الخارجية ، فإنها اتسعت وازدهرت بمشاركة الشعوب الإسلامية ، كل بما لديه من أصالة ثقافية وعبقرية فنية

وإبداعية ، فاحتضنت وأدمجت تراث الحضارات القديمة التي ازدهرت في الشام وفارس والهند والصين ومصر واليونان .

وانطلقت في سماتها الإسلامية ، وتلألأت في سمائها نجوم العلم المنيرة ، وتنافست عبقريات الفكر والفن والإبداع ، بما في ذلك من عبقريات يهودية أو نصرانية احتضنتها قافلة الإسلام .

كانت الحضارة الإسلامية بما تحمله من قيم وأخلاق تطمح إلى تكوين الرجل الكامل الذي يجمع بين الإيمان والعلم والأخلاق ، كما كانت تسعى إلى تكوين الأمة الفاضلة التي تجمع بين الأخوة في الإيمان والعدالة في الحقوق والتعاضد في المصالح والتنافس في الفضائل .

لذلك كانت تتميز الحضارة الإسلامية في واقعها التاريخي بإعطاء الاهتمام نفسه لبناء المساجد ، وإنشاء المدارس ، وتعمير المكاتب ، ونشر الحمامات والمطاهر ، وتنمية الفلاحة والصناعة ، والهندسة والفنون .

لا ينكر رغم ذلك أن الاضطرابات السياسية ، وتصادم العصبيات المنعزلة أو المتكتلة ، والاعتداءات الخارجية ، التي حالفت بين الهمجيات الغربية والشرقية ، وحتى الأوبئة والآفات الطبيعية ، قد أوقعت تصدعات خطيرة في صرح الأمة واستقرارية النظم ، وكثيراً ما حطمت مجهودات واجتهادات إصلاحية وحضارية وفكرية نفيسة .

إن التقدم العلمي لا يحصل ويتواصل إلا إذا كانت البيئة الاجتماعية ضامنة للأمن والاستقرار ، داعية إليه ومدافعة عنه ، ولذلك نشاهد أن أكبر العبقريات العلمية والإنجازات الفنية ، ظهرت في المناطق التي تحظى بالاستقرار السياسي ، والتي تتوفر فيها الوسائل النظامية والمادية والثقافية كما كان الحال بالعواصم الكبرى كدمشق وبغداد والقاهرة وسمرقند وقرطبة وإشبيلية وفاس وتلمسان وتونس وغيرها ، حيث

ألفت ونسخت الكتب العلمية النفيسة ، وتجمعت في المكاتب الخاصة والهـامة ، وأنجـزت البحـوث العلميـة في ميـادين الـطب والصيـدلـة ، والكيمياء والرياضيات ، والهنـدسة والفـلاحة ، واللغـة والفقه ، والأدب كما أنجزت المشاريع الكبرى في العمران والإدارة ، والصناعة والري ، والـرصد الفلكي والصحـة ، والرعـاية وغيـرها ، من العلوم المتنـوعة ، والغزيرة التي غرف الغرب من جداولها ثم أنكرها لما ارتوى .

لم يكن هـدفنـا من هـذا العـرض تقييم الحضارة الإسـلاميـة فيمـا أنجزته ، ولا عرض قائمة للعلماء والمفكرين الذين اشتهـروا فيها تحت راية الإسلام ورعايته ، ولكن المقصود هو إبراز الخصائص التي تميـزت بها الحركات الفكرية والعلمية في الإسلام .

إن الثقـافة الإسـلاميـة تتميـز حتى في حـالـة التنـوع والتخصص بالتكامل الميداني بين العلم والدين ، لأن العلم في مفهومه الموضوعي العقلاني لا يتعارض ولا يمكن له أن يتعارض أساساً مع الحقيقة الدينية ، وذلك حتى عند الفلاسفة العقلانيين .

أمـا الاختلافـات التي ظهرت بين المـدارس الفكريـة والمـذهبيـة المختلفة فإنما تقع على مستوى التأويلات النظرية والتطبيقات الجزئية ، كما هو شأن الفكر الطامح الطليق الذي كان يسود في العـالم الإسلامي في الوقت نفسه الذي كان الفكر العلمي يتعرض في العـالم الغربي الى أعنف وسائل القمع والتجهيل ، لا سيما إذا كان ذلك الفكر مقتبسـاً من كتب المسلمين الذين كانوا يعتبرون مرتدين .

يتضـح من جهة أخـرى أن المنـاهـج التحليليـة والتجـريبيـة التي استخـدمها العـرب والمسلمون ، وكـذلك الاختـراعات الأسـاسيـة التي أنجزوها في ميادين العلوم النظرية والتطبيقية كانت تفوق ما قد قيل عنها حتى من طرف الملاحظين ذوي النزاهة والموضوعية ، لأنهم لم ينتبهـوا

لغزارة التيارات الفكرية التي كانت تعبر الحدود الإقليمية عن طريق التبادلات الاقتصادية والثقافية وحتى عن طريق الوقائع الحربية .

يشهد على ذلك التأثير العميق عدد لا يحصى من الكلمات والمصطلحات العلمية التي تسربت في اللاتينية الوسيطة وفي اللغات الأوربية ، كما يدل على ذلك الكثير من أسماء العلماء المسلمين التي صيغت في قالب لاتيني مثل (ابن سينا Avicenna) و (ابن رشد Averrues) و (ابن زهر Avenzol) و (الرازي Razès) و (ابن باجا Avenpace] . .

وهكذا رضعت الحضارةالغربية في مهد نهضتها الطويلة من الحضارة الإسلامية الزاخرة بالعلم والحكمة ، فأرسلت الطلاب للمدارس الإسلامية ، واستوردت ما استطاعت من الكتب وترجمتها ودرستها في المدارس والكليات المقتبسة من المؤسسات الإسلامية ، وحتى في الكنائس والبلاطات .

أولئك العلماء المسلمون أعطوا للعلوم التي أنشأوها أو طوروها كالرياضيات والجبر والمساحات والهيئة ، والعلوم التطبيقية كالكيمياء والحيل والهندسة ، والعلوم الطبيعية ، قواعد ومناهج فتحت للعلم آفاقاً نظرية وإبداعية ، وسبقت اكتشافاتهم واختراعاتهم العديدة تلك التي حققها الغرب نقلاً أو زعماً أو ابتكاراً في القرون ما بعد الخامس عشر ، قبل أن يتمكن من السيطرة المتينة على العلوم والتكنلوجيا .

كما أن المسلمين حققوا تحولاً جذرياً على المستوى الفكري ، ولم يتبعهم الغرب في ذلك بسبب التناقض الحاد بين تعاليم الكنيسة والمنطق العلمي ، حيث أنهم ألفوا في نطاق الوحدة العقيدية التي يتميز بها الإسلام بين علوم الدين وعلوم الطبيعة ، وبين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ويتجسد ذلك التأليف في شخصية العلماء المسلمين أنفسهم حيث أنهم كانوا في أغلبيتهم الكبرى يجمعون بين علوم القرآن والفقه

والتخصصات الأخرى ، كما نجده عند الكندي وابن سينا والفخر الرازي والغزالي وابن الخطيب وابن رشد وابن خلدون وغيرهم .

كان موقف الغربيين في العهد الأول من البعثة الحضارية تحت طغيان النزعة الصليبية المعادية للإسلام ، فقاوم باسم الدين دعوة الإسلام في حروب صليبية دموية مدمرة ، وفي اضطهاد الفكر العلمي بجميع وسائل الترهيب والتعذيب . ثم في عصر التنوير ارتكزت البعثة الحضارية على ما سموه بالتراث اليوناني اللاتيني ، وهو ما حمله إليه المسلمون بعد ما طوروه وأثروه وأدمجوه في عقلانيتهم الإسلامية .

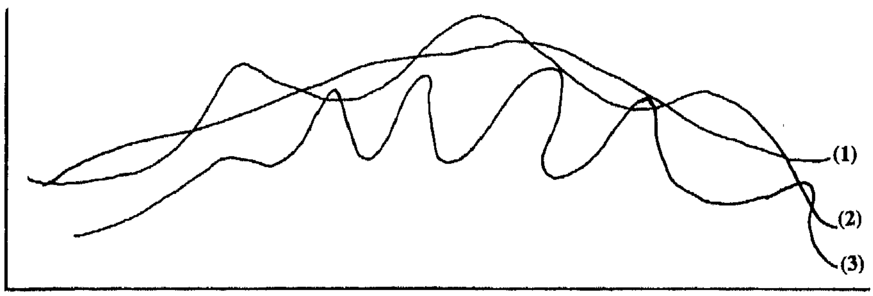
وفي الوقت نفسه ورغم الابتعاد عن تعاليم الكنيسة رفض الغربيون ما تحمله الحضارة الإسلامية من مبادىء عقيدية وقيم أخلاقية ووحدة منهجية لعلوم الدنيا والدين . إلى أن طغى التيار المادي العلماني على الكنيسة نفسها ، فتحولت الحضارة الغربية ورغم صبغتها المسيحية إلى حضارة مادية .

وبينما كانت الحضارة الغربية تتقدم حثيثاً في الاكتشافات العلمية والصناعات الآلية ، وتبتعد عن التعاليم الكنسية والقيم الروحية ، كان التحول المعاكس يحدث في العالم الإسلامي الذي جعل يتخلى عن توازنه العقيدي ، فيهمل أمور الدنيا في جوانبها العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ويلجأ إلى مفهوم واهن متجمد لتعاليم الدين ، فانفصلت عراه ، وانتزع سلطانه ، وتضاءلت ثقافته ، وتشتتت شعوبه ، فصار العالم الإسلامي يجري وراء الدنيا فلم يلتقط منها إلا فتاتاً ويجري وراء الآخرة فيلقى الله مُسْتضعفاً مُسْتكيناً .

كيف وصلت الحضارة الإسلامية إلى هذه الدرجة من الانحطاط والاستضعاف ؟ ذلك ما سنتعرض له باختصار في الفصل التالي .

3 ـ العلم والتخلف الحضاري

إذا حاولنا أن نرسم لتطور الحضارة الإسلامية شكلاً يعبر عن نموها وانحطاطها ، فإن ذلك الشكل لا ينحصر في خط واحد يتصاعد ثم يتكامل ثم ينخفض ، وإنما يتموج من حول خط أصلي يتضمن خطوطاً فرعية ثانية وثالثة ، كما يتبين في الجدول التالي :



أما الخط الأصلي (1) فيمثل تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة منذ فجرها في القرن السابع المسيحي إلى القرون الأخيرة ، والتي تمر على نشأة الإسلام وانتشاره في العالم ، ثم ازدهار الحضارة الإسلامية ووصولها إلى أوجها في القرون من الثالث إلى السابع الهجري (العاشر إلى الرابع عشر مسيحي) ثم تطلعها وأفولها في القرون المتخلفة .

وأما الخط الثاني (2) فيمثل الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى في إشراقها وازدهارها ، ثم زوالها من أموية شامية ، وعباسية عراقية ، وأموية أندلسية ، وموحدية مغربية ، وفاطمية قاهرية ، وفارسية ، ومغولية ، وعثمانية .

وأما الخط الثالث (3) فيمثل تلك الحضارات المحلية السريعة الظهور والزوال التي تشع أنوارها وسرعان ما تسقط وتموت مع موت باعثها أو حاميها ، كما حدث ذلك في مدن وإمارات أضاءت في خلال الحضارة الإسلامية ؛ وأفلت بين عشية وضحاها ، مثل غرناطة وتلمسان وبجاية وطرابلس وحلب وبخارى وغيرها من العواصم الكبيرة والصغيرة .

إن تعدد المراكز الحضارية وانتقالها ورغم وحدة الانتماء الديني والفكري ، ورغم التقارب الثقافي لم يكن ليمكن من الاستقرار الطويل المدى الذي هو شرط أساسي لتنشأ فيها العبقريات العلمية ، والخبرات الإبداعية ، والفكرات التجديدية ، ولتستقيم فيها المؤسسات والتقاليد العلمية المتعاونة والمتوارثة .

كما أن الغزو الداخلي أو الخارجي حينما يهدم قلعة أو يشرد قبيلة أو يحرق مكتبة قد يكسر حلقات التواصل الحضاري وربما يوقفها تماماً ، مثلما أن عالماً يطارد أو يسجن لأنه يبدي أفكاراً لا توافق نزعات الحكام أو شهواتهم قد يجمد دوافع الابتكار والاجتهاد والتفتح العلمي .

كم من اكتشافات نفيسة في علوم الكيمياء والرياضيات والبصريات والطب والصيدلة والصناعات الآلية لم يتمكن المسلمون من استغلالها وتطويرها إلى أن تبناها الغرب الناهض وبنى عليها قوته العارمة .

وكم من مخطوطات عربية انتشلت من جرائم التدمير والتحريق والإهمال والتقطها الغرب فكانت مراجعة النفيسة لبعث الحضارة في البلدان الأوروبية .

إن أسباب تخلف الحضارة الإسلامية عديدة متداخلة ومترابطة لا يمكن استقصاؤها ولا تحليل جدليتها بدقة ، وسنكتفي بعرض بعض العوامل التي اتضحت لنا من بين العوامل الكثيرة الأخرى .

1 - عانت الأمة الإسلامية منذ عهدها الخلافي ظواهر سلبية تتمثل في بقاء أو بروز أنواع من العصبيات القبلية والعرقية والشعوبية عاكست وحدة الأمة وعالميتها ، ولا سيما حينما انفصلت روابط الخلافة المركزية وتفككت أطراف العالم الإسلامي ، وتحولت إلى طوائف وإمارات وملكيات تزدهر فيها مظاهر الخلافة أو تختفي حسب الموارد الحاصلة وسعة العمران وشخصية الأمير أو السلطان . وإذا فقدت الأمة روابطها

السياسية فإنها لا تتمكن من استقطاب الطاقات الفكرية والثروات المادية التي تبرز هنا وهناك إلا بقدر ومدى نفوذ الدولة وامتداد سلطانها .

2 -في حالة بروز علماء عباقرة مجتهدين ومبتكرين ، فإن جهودهم في حاجة إلى بيئة حضارية تتبنى أعمالهم وتدعم كفاءتهم وتستغل ما اكتشفوه أو أنجزوه . وأما إذا فقد ذلك العامل الأساسي فإن أعمالهم تجهل أو تضيع كما ضاعت اكتشافات ابن النفيس حول الدورة الدموية الصغرى ، إلى أن انتزع الفضل في ذلك باحثون غربيون (كسرفي وهارفي Servet - Harvey) . وكذلك شأن ابن الهيثم في علم البصريات ، وابن خلدون في علم التاريخ والاجتماع ، الذي كادت أعماله تضيع تحت رماد الجهالة والانحطاط الذي بدأ يخيم على العالم الإسلامي .

والظاهرة نفسها نشاهدها على مستوى الاختراعات والاكتشافات العلمية المختلفة التي كان من شأنها أن تحدث الانطلاقة التكنلوجية في العلوم الرياضية والهيئية والآلية والكيميائية والطبية ، ولكنها لم تجد البيئة الدافعة للتطبيقات العملية ، ولم تجد الاستقرار السياسي الذي يضمن الاستمرارية في مواصلة البحوث وتراكم المعلومات . بل اقتصرت البحوث التطبيقية على تلبية الطلبات المحدودة في مجتمعات مرتخية الأوصال محدودة المطامح ، وبين فئات حضارية متفاوتة في الحاجات والأذواق كانت تتنافس على الكسب والشهوات ، فأنجزت في ذلك السبيل من وسائل البذخ ما لا تتخيله الأذهان .

كما أن الحاجة إلى تحصين قواعد الدولة وتقوية سلطانها أدت إلى اختراعات كبيرة في صناعة الأسلحة والآلات العسكرية ، فصنعت البوارج الحربية ، واستخدمت البارود ، واستعملت البنادق ، ثم المدافع إلى أن تغلبت عليها عوامل الانحلال .

أمـا النظام الاقتصـادي فكان كـذلك معتمـداً على وسائـل الإنتاج وقواعد المعاملات التقليدية من دون محاولة تطويره الآلي والنظامي .

وهكذا كان المسلمون فيما تسمى بالقرون الـوسطى في استعـداد فكري وعملي لبعث نهضة علمية وصناعية راقية ، ولكنهم فقدوا زمامهـا لعدم الحوافز الاجتماعية والاقتصادية والثقافيـة ، وما يشتـرطه ذلـك من استقرار سياسي وطموح جماعي ، بفضلهـا تتوفـر الإمكانيـات وتعاضـد بعضها البعض ، وتندفع إلى التنافس البناء والتقدم المستمر .

3 -من ناحية أخرى إذا كان العلم مرتبطاً بالدولـة إما مـوالياً لهـا أو معارضاً لها ، فإنه يقوى بقـوتها ويضعف بضعفهـا ، لأن العلم لا يتقدم ويزدهر إلا إذا احتل مكانة محترمة ثابتة في نظام عقائدي وسياسي يتسامى على التنـاقضات البشـرية ، ويضمن للعلم والفكـر شروط الاستقـلاليـة والأمن والاحترام ما لم يتعارض مع القيم السائدة .

لذلك كان ظهور الاختلافات المـذهبية والنـزاعات السيـاسية التي أصـابت العالم الإسـلامي سبباً خـطيراً في تبـذير أو تعـطيل العبقـريات الفكرية والعلمية التي نسفتها فتن عنيفة وعميقة . ورغم أن تلك الفتن لم تمنع ازدهار الحضارة الإسلامية بصفة إجمـالية ، فـإنها جـرتها في تيـار التصارع المذهبي والسياسي الذي شتت وحـدة الأمة الإسـلامية وأخيـراً أخمد جذوتها .

4 ـ لم يترك الغزو المتواتر لهمجيات الشرق والغرب ولا الحروب المدمرة التي حرضتها وفرضتها محـالفة الصليبيـة والمغول مجـالاً لتطور الحضارة الإسلامية وتثبيت أصولها العلمية ، وذلك رغم الانتصارات التي أحرزها المسلمون ضد الصليبية ، ورغم دخول المغول في الإسلام .

إلا أن الصليبية لم تكف عن الاعتداء مع غزوات القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، بل لا زالت تحارب العالم الإسلامي في الغرب وفي

الشرق بأساليب مختلفة ، إلى أن استخلفتها الحروب الاستعمارية في مظاهرها العسكرية والسياسية والاقتصادية والعقائدية ، ولا زال العالم الإسلامي في جميع أنحائه يعاني من أنواع الغزو في شعاراته وأساليبه الجديدة .

5 ـ لم يكن المسلمون أنفسهم بريئون من حدوث ظاهرة الانحطاط والانكماش الحضاري .

لم تنجح الاجتهادات الفكرية في تجاوز الاختلافات المذهبية لتجعل منها عامل تنوع وتفتح وتقدم لا عامل تفرقة وتصارع وتعقيم . وإذا كانت الحركة المحافظة التي أوقفت نشاط الاجتهاد الفكري قد تجد مبرراً في مكافحة الانحرافات العقيدية وردع الاتجاهات الانحلالية التي كانت تهدد الأصول التشريعية ، إلا أن الوقفة الاجتهادية شملت كل أنواع التفتح الفكري والإبداع العلمي .

6 ـ بعض العلماء المسلمين وليسوا من أقلهم ذكاءً وإيماناً تفتحوا للعلوم اليونانية خاصة بما تجمعه من علوم طبيعية وفلسفية عقلانية . وإذا كانت العلوم الطبيعية من أثرى وأبقى ما اقتبسوه منهم ، فإن بعضهم أفرط في التبعية للمناهج الفلسفية اليونانية .

من آثار تلك الفلسفة أنها أذكت الفكر الجدلي والانتقادي ، ولعل من الأصلية ما لم تلتصق تماماً بتعاليم الوحي التي لها منهجية تختلف في تعرضها للحقائق الغيبية وللغايات الوجودية ، وهذا ما اعترض عليه أبو حامدالغزالي في تهافت الفلاسفة .

ثم إن الفلسفة حولت الفكر الإسلامي عن جذوره العقيدية بإعطائها للعقل مكانة مركزية وعلى حساب التعاليم والقيم القرآنية ، وذلك رغم محاولة التأليف بين المنهجين كما نجده عند الفرابي وابن سينا وابن رشد .

كما أن تطور الفلسفة في منهجيتها العقلانية يجعلها تبتعد في الوقت نفسه عن العلوم الموضوعية وعن العلوم الدينية ، فتضيق مكانتها ويزداد حرجها وتهافتها .

نتيجة ذلك الانفصال المنهجي بين العلوم الطبيعية والعلوم الدينية والفلسفة ، نجدها :

أولاً ـ في تجمد الفكر الديني الذي اقتصر على العلوم الكلامية والتشريعية يقوم بها علماء أفاضل يعتنون بالعبادات والمعاملات ، ولا يهتمون بمصير الأمة الحضاري والسياسي والاقتصادي .

ثانياً ـ في تخصص الفلسفة وانعزالها عند فئة من خاصة العلماء الذين يهتمون بالمضاربات الجدلية والاستقرائية ، وهم يبعدون عن واقع المجتمع واهتماماته وتطلعاته الدينية والدنيوية ، ثم اتسعت الفجوة بين اهتمامات الفلاسفة وقضايا الأمة ، وآلت الفلسفة إلى الضمور إلى أن وجدت في الغرب مناخاً علمانياً تبناها وأثراها .

ثالثاً ـ في تطور العلوم الطبيعية التي كانت تسير مع اهتمامات المجتمع الحضارية ، ورغم تقدمها واكتشافاتها لم تتحرر تماماً من التبعية لمسلمات نظرية غير ثابتة ، كما وقع ذلك في نظرية الأخلاط في الطب ، ونظرية تحول المعادن في الكيمياء ، وحتى في نظريات (التنجيم Astrologie) باعتبار أن الأجرام السماوية تؤثر في حياة الإنسان .

7 ـ رغم الاحترام والتقدير والتكريم الذي كان يحظى به العلم والعلماء، فإن ذلك الاهتمام لم يثبت على مستوى الدولة أو الجامعات في نطاق نظرة اجتهادية وتجريبية بعيدة المدى ومستقلة عن الأحداث ومتربصة بالقيم لا بالأشخاص .

ولا شك أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية

وهي في حالة ركود ، لم تكن دافعاً للاكتشافات ولتطبيق الاكتشافات ما دامت الحاجة إليها ضئيلة والطلب لها مفتقداً .

8 ـ أخطر من ذلك كله هو أننا نشاهد في عصر النهضة الإسلامية الحديثة التبعية السلبية نفسها للفكر الغربي المعاصر بما يحمله من تباعد عقائدي بين العلم والفلسفة والدين .

وقع المسلمون في تعقد وارتباك بين ما تحمله الحضارة من تقدم علمي وتكنلوجي هائل وما تجرفه من فلسفات مادية إلحادية ، تنزع من الحياة روحها ومعانيها ومقاصدها .

نستخلص من هذه التحليلات أن أسباب التخلف العلمي والحضاري ترجع أساساً إلى انحلال الوحدة العقائدية ، التي أدت إلى التناقضات الداخلية في جوانبها المختلفة ثم إلى التعقيم والتوقف الحضاري ، كما يظهر ذلك في الآثار التالية :

ـ توقف البحث والاجتهاد الفكري في علوم الدين .

ـ التعصب المذهبي لا سيما إذا كان مرتبطاً بظروف سياسية بعيدة عن الأصول والقيم الدينية .

ـ عدم الاعتناء بالعامل السياسي في امتداداته الاجتماعية والولاء العلمي لسلطات تقليدية استبدادية تسعى لتثبيت سلطانها أكثر مما تسعى إلى تحسين أحوال الأمة المادية والمعنوية .

ـ انفصال الروابط العقيدية والسياسية داخل الأمة والرجوع الى العصبيات القبلية والقومية ، مما أدى إلى إضعاف الأمة وتمزقها العضوي وفتح الأبواب للتدخل والدخول الصليبي والاستعماري .

ـ توقف البحوث العلمية ، واندثار المراكز العلمية ، وانكماش

التـراث العلمي على العلوم الفقهية دون العلوم الـطبيعيـة والاجتمـاعيـة والصناعية .

كل ذلك أدى إلى الانحـطاط في جميع مـظاهره ، وجعـل العالم الإسلامي بكل ما يحويه من مساحات أرضية ومواقع استراتيجية وثروات بشرية وطبيعية فريسة مغرية لمطامع الاستعمار . إلى أن جعل يستفيق من سباته الطويل فيجد نفسه مكبلاً في أفكاره وأطرافه وأصوله وآماله .

4 ـ النهضة الإسلامية
وتحديات العصر

النهضة الإسلامية وتحديات العصر

غير الغزو الاستعماري مصير العالم الإسلامي بصفة عميقة وطائلة ، وتفاعلت في ذلك التغيير عوامل التخلف الداخلية وعوامل التوسع الاستعماري .

أما الاستعمار فكان في ذاته نتيجة للتقدم الهائل الذي حققته أوربا في ميادين العلم والتكنلوجيا والاقتصاد ، وهو الذي دفعها إلى الفتوحات الاستعمارية في جميع قارات العالم . ولم يجد المد الاستعماري أمامه لا إرادة سياسية ولا وحدة نظامية ولا عدة عسكرية ، فكانت المقاومة غير متكافئة لا في القوة المادية ولا في الرأي السياسي رغم البطولات الرائعة والتضحيات الجسيمة .

وكان من شأن الاستعمار أن يزيد سوءاً حالة التخلف والفقر والجهل والتخاذل ، كما كان من شأنه أن يثير في الشعوب المستضعفة ردود فعل عنيفة ومستمرة ، لم تقتصر على المقاومة المسلحة والثورات المتواترة بل جعلت تستوحي من أساليب الغرب نفسه وسائله العلمية والتنظيمية .

وهكذا ظهر الكفاح التحريري في شكلين متكاملين يتمثلان في المقاومة السياسية والعسكرية ، وفي الحركة الفكرية التجديدية .

أما الحركة الفكرية التي قادها العلماء المجتهدون مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وإقبال وغيرهم ، فكانت تحاول إرساء النهضة على أصولها العقيدية والحضارية ، وأما الحركات السياسية فكان همها الأول تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي .

ولم يلتق هذان الشكلان من المقاومة في حركة نضالية موحدة وشاملة إلا في بعض الثورات المحلية ، كالتي قادها الأمير عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي وإدريس السنوسي والمهدي في السودان وثورات أخرى في إفريقيا الغربية والهند . . . كلها ورغم الانتصارات النسبية التي أحرزتها لم تؤثر في مصير الأمة الإسلامية .

بل كانت النتيجة في أواسط القرن العشرين وما بعدها أن فجر الصحوة الإسلامية فجر مرتبك يكاد لا يتميز فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود من كثرة التناقضات التي ورثها العالم الإسلامي من كارثتين قاصمتين كارثة الانحطاط وكارثة الاستعمار .

أما الحركات الفكرية فإنها لم تؤلف بين أشلاء الأمة الإسلامية ، وتركتها تتخبط في تصارعات عقائدية واختلافات مذهبية تتراوح ما بين سلفية منغلقة رافضة لكل أنواع التطور الحضاري ، وحركات قومية علمانية ترفض الأصول الدينية .

وأما التحرر السياسي فلم يعن انتهاء النفوذ الاستعماري والتبعية المختلفة الأشكال للمعسكرات الغربية . وأصبحت (مخلفات الاستعمار) أشد ضراوة من الاحتلال العسكري ، لأن الاستعمار تحول إلى نوع جديد من (الوجود) يحاول إبقاء هيمنته السياسية والاقتصادية والعقائدية والتكنلوجية على ما يسمى بالعالم الثالث ، باعتباره (منجماً) مستحلاً تجلب منه الموارد والطاقات المتوفرة فيه .

وهكذا يتصدى العالم الإسلامي كغيره من دول العالم الثالث للغزو الأجنبي ، في مظاهره المختلفة وفي أساليبه المتعددة .

أما في الميدان الاجتماعي والاقتصادي فلم يفقد ذلك الغزو وحدته وشراسته ، بل تفاقم بسبب التنافس بين القوات العالمية الكبرى في السيطرة على موارد العالم الثالث وأسواقه الاستهلاكية .

وأما في الميدان العقائدي والفكري فلا زال العالم الإسلامي يعاني من التشتت والتناقض ، وكأنه ضل طريقه في متاهات الاستغراب وازداد تيهاً لما تحرر من قبضة الاستعمار المباشرة . فبينما كانت ردود فعله طيلة الاحتلال تتمثل في المحافظة على الذاتية الدينية والحضارية والقومية ظهرت فيه بعد ذلك تيارات عقائدية تحاول جر الشعوب الإسلامية إلى التنكر للذاتية الروحية ، وإلى استبدالها بقيم عقائدية مستوردة من علمانية الشرق والغرب التي تتمثل في إلغاء الأصول الدينية والاندماج في المادية البراقة التي يشهرها الاستعمار الجديد في شعارات مزعومة تدعي بالعلم والعقلانية والفعالية والواقعية .

وهكذا يظهر العالم الإسلامي وقد شلته مشاكله الداخلية وبهرته قوة الغرب ، فكأنه لم يجد أمامه طريقاً يسلكها إلا التي بنى عليها الغرب حضارته .

نعم لقد تصدت الأمة الإسلامية لهذا الغزو بنوعين من المقاومات :

المقاومة الأولى : تتمثل في تصلب الضمير الديني الكامن في أعماق الجماهير ، والذي أظهر في السنين الأخيرة قوة وعمقاً واتساعاً لم يكن في حسبان المترقبين له ، سواء داخل العالم الإسلامي أو خارجه ، إلا أنه تنقصه الحكمة المدبرة والمسيرة .

المقاومة الثانية : تتمثل في حركة فكرية أصيلة تحاول الرجوع إلى الأصول العقيدية التي بنى عليها السلف الصالح حضارة الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة ، إلا أن أغلبية علماء الدين لم يتحكموا في جدلية العصر بما تحمله من اكتشافات علمية وتغيرات مادية وتطورات فكرية ومنهجيات تطبيقية وتنظيمية .

يظهر عجز الأمة الإسلامية في التناقض أو التباعد بين تعاليم الدين

والعلوم الجديدة ، فأوقع ذلك نوعاً من التصادم بين فكر ديني متحجر يقاوم مسيرة التاريخ ليحافظ على أصالته الدينية وحضارة تكنلوجية في أوج رقيها العلمي والمادي تحاول إطفاء نور الله في ضمير الإنسان .

لكن الأشياء ليست في بساطة المنطق الإنساني وتوقعاته الاعتباطية ، ولو كانت كذلك لتصادم الدين بالعلم أصلاً ولبسطت المادية سلطانها تدريجياً على العالم كله . إلا أن ذلك المنطق المتسرع المغرور يرتكز على جدلية مقصورة واهية ، تعتبر أن الضمير الديني ليس إلا وهماً وخيالاً ظهر في ذهن الإنسان نتيجة للجهل والخوف ، وأنه سينقشع ضبابه كلما غمرته شمس العلم .

والجدليةالمادية نفسها تدعي تحليل الحوادث والتطورات التاريخية ، انطلاقاً من الدوافع الاقتصادية والتناقضات المصلحية والطبقية ، الجدلية نفسها تتجاهل حقيقة الضمير الديني الثابت في الفطرة البشرية .

اتسعت ظاهرة الصحوة وما سبقها أو تبعها من حركات فكرية سلفية وتجديدية باختلاف انتماءاتها المذهبية في ظروف تاريخية حرجة ، تدعو تارة إلى التشاؤم، وتارة إلى التفاؤل ، ولكنها في جملتها تعبر عن تيار جماهيري يندفع إلى تحقيق أمل الأمة الإسلامية عقيدةً ونظاماً وحضارةً .

ولا تخلو هذه الصحوة من اندفاعات عنيفةوشرارات ملتهبة تتحدى الأوضاع السياسية وتثير التخوفات سواء في الداخل أو في الخارج . أما في الداخل فلأن الحركات الدينية إذا تجمعت في نظم سياسية ونضالية فإنها تهدد النظم القومية التي انتصبت بعد مرحلة التحرر . وأما في الخارج فلأنها تهدد التوازن العالمي المؤسس على التنافس بين القوات الدولية التي تهيمن على الاقتصاد العالمي والتي تتصادم أو تتحالف فيها عوامل معقدة تتداخل محاورها ما بين الغرب والشرق والشمال

والجنوب . والتجمع الإسلامي الذي تلوح بوادره من وراء السحب المتلبدة لا يتحقق إلا بمقاومة المصالح الاقتصادية والاستراتيجية الغربية وهيمنتها الحضارية في محتوياتها العقائدية والأخلاقية والثقافية .

ولقد تختلف الحركات الإسلامية في مفهومها العقائدي حسب النزعات الفكرية والانتماءات المذهبية والظروف القومية ، ولكنها وقبل أن تلتقي جداولها وتتنسق تياراتها وتهدأ عواطفها ، قد تتصدى إلى أنواع من المعاكسات والتحديات في الميدان الحضاري أعنف من التي تتصدى لها من المعارضات العقائدية والسياسية. ذلك لأن الحضارة الغربية تمثل تحدياً متعقد الجوانب والأساليب لا يكمن فقط في الأزمة الحضارية العميقة التي تاهت فيها ضمائر الأجيال المعاصرة ، بل تتمثل كذلك فيما صنعته وذخرته من وسائل الترهيب والتدمير والاستلاب المادي والمعنوي .

لقد سجلت العلوم والتكنلوجيا الحديثة من الاختراعات والإنجازات الهائلة ما لم يخطر بخيال القرون السابقة . إلا أن ذلك التقدم عوضاً عن أن يكون عامل فضيلة وتحرر وازدهار تحول إلى عامل استضعاف واستغلال واستلاب للإنسان الذي كان من حقه أن يكون مخدوعاً لا خادماً للطاقات والآلات .

إن المادية الرأسمالية مثل المادية الشيوعية ، طوقت الإنسان بالأغلال الشهوانية ، وكبتت مطامحه الروحية ، فأخذ يتيه في دوامة الإنتاج والاستهلاك والتنافس على السلطة والكسب والاستمتاع ، وذلك رغم المكتسبات الرائعة التي حققتها في ميادين الصحة والترفيه المعاشي والثقافة والعلوم المختلفة ، والتي تظهر ضئيلة إذا قورنت بالتسابق الرهيب في صنع واكتساب الأسلحة المدمرة والتزاحم على جحيم الطاقة النووية التي أصبحت كابوس الإنسانية اليومي .

هكذا تجمدت (الفوائد الفائضة) التي اختلست من عرق العاملين سواء في الغرب الرأسمالي أو في الشرق الشيوعي في المستودعات العسكرية الضخمة إذا لم تتحول إلى نار النابالم والقنابل العنقودية والصواريخ الفتاكة .

أما التسابق نحو القيم الأخلاقية الفاضلة ، والمحبة بين الناس ، واحترام الحرية والكرامة الإنسانية ، والسعي لسعادة الناس وصحتهم الجسمية والنفسية والروحية . فمن يتكلم عن ذلك بصدق وإلحاح ؟ اللهم إلا إذا كان ذلك النداء القديم الذي يدعو إلى الله والذي يقر للإنسان بكرامته الوجودية ومسؤوليته الكونية .

رغم معاكسات الساعة ، وغوايات البشر ، ورغم الملحمة التاريخية التي يعيشها العالم الإسلامي ، ورغم التحجر الذي أصاب الفكر العلمي والإبداعي ، ورغم التخلف الاقتصادي ، ورغم التشتت السياسي ، ورغم التوقف الاجتهادي فإن الإسلام كرسالة دينية ومنهج عملي قادر على أن يقود الإنسانية من جديد في طريق الحقيقة والحق .

إلا أن تحمل الرسالة في الظروف التاريخية المعاصرة يتطلب من الأمة الإسلامية نفسها تحولاً جذرياً في الذهنية والعقلية والمنهجية . وذلك التحول يعني في الوقت نفسه استكشاف مجدد للدين الإسلامي بما يحمله من رسالة روحية ، ومنهجية تشريعية ، وشمولية أخلاقية ، وواقعية سلوكية ، وأهداف وجودية ، لا تتغير مع تغير الزمان والمكان، وتفتح لمكتسبات العصر العلمية والتكنلوجية والحضارية التي تنمو وتتطور مع الزمان والمكان .

لقد فقدت الحضارة الإسلامية بفاعل التخلف والتهاون أركانها العلميةوالعملية ، كما أضاعت الحضارة الغربية المعاصرة أركانها الأخلاقية والروحية . وبما أن الإسلام هو في أصله ومقاصده دين الوحدة

العقيدية والشمولية العملية ، فإنه يسعى لتزكية الإنسان ورفعه في جميع أبعاده الدنيوية والأخروية ، يتمسك بالجذور الثابتة ويزدهر في الفروع المتنامية . وأما مصير الإنسانية وحضارتها ، فإنه لا يفلت من إحدى النهايتين : إما هلاك في ظلمات الطاغوت ، وإما حياة في طريق النور وسعادة الإيمان ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴾ [البقرة 256/2] .

***

الخلاصة

إن المسؤولية الأساسية التي تقع على كاهل الأمة الإسلامية في عَصْرِ الانبعاث الحضاري تتمثّل في هدفين مترابطين متكاملين ، هما إحياء التراث الفكري الأصيل بما يحمله من رسالة روحية عالمية والالتحاق بالحضارة المعاصرة بكل ما تحمله من تجارب إنسانية ومكتسبات علمية .

ولن تسترجع الأمة الإسلامية ذاتيتها الحضارية، ولن تقوم بوظيفتها الرسالية إلا في نطاق ذلك الترابط المتين بين الأصول العقيدية والمناهج العلمية المتقدمة .

وإذا لم يكن من العملي أن نتعلم الطب في قانون ابن سينا ، ولا البصريات في رسالة ابن الهيثم ، فإن دراسة الحضارة الإسلامية قد تكشف لنا من منهجية وأخلاقيات ما يَجْدُرُ بنا أن نتبناه ، لما تَحمِلُهُ من أصالة روحية وبراعة إبداعية وفضائل أخلاقية وتحمُّسات اجتهادية وتبليغية ، نحن في أشد الحاجة إليها في عصر فَقَدَ فيه الإنسانُ أعزَّ ما فضَّله الله به وهي أبعاده الأخلاقية والروحية .

إن ضمائر الشعوب الإسلامية متعطشة إلى ما ضاع منها من عزة وكرامة ، وَصَفَهَا الله بها في قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَـأْمُـرُونَ بِـالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَتُـؤْمِنُـونَ بِـاللَّهِ ﴾ [آل عمران 110/3] . ولكنها تتعرض لمعاكسات عنيفة وحواجز شديدة تحول بينها وبين أمانيها سواء من داخلها أو من خارجها .

من أعنف التحديات التي تعارضها في مسيرتها تصادمها مع الغزو الاستعماري الذي جمع كل ما لديه من قوة ودهاء ليُخْمِد إرادتها ، وَيَكْسِر شوكتها ، ويوهن عزيمتها ، بإثارة الفتن والأحقاد وتشديد الضّغوط والقُيود .

ومن أسوأ التحديات التي تعارضها من داخلها أنها غفلت عن الوصية الكبرى التي تربطها برسالتها ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران 103/3] .

ولكن التحديات من شأنها أن تهز الضمائر وتحرك العزائم ، وتلك هي الوثبة العارمة التي لاحت بوادرها ليس في العالم الإسلامي فحسب ، ولكن في جميع أقطار العالم ، تدعو إلى الحق وإلى سبيل الرشاد .

وللوثبة مظهران متكاملان كما حَدَّدَهُمَا رسول الله صلى الله عليه وسلم : جهاد أصغر يتصدى للإعتداء الخارجي بوسائل الدفاع المشروعة ، وجهادٌ أكبرٌ يتمثل في محاربة العوامل السلبية التي تعاكس تزكية الإنسان وترقية الأمة في قيمها الحضارية والأخلاقية الروحية .

كما أن للنهضة مظهران مترابطان : مظهرٌ عقيدي يرجع بها إلى الأصول الدينية التي تتمثل في الإيمان والأخلاق ومظهرٌ حضاري يخدم الدين والأخلاق ، ويتمثل في الحضارة والعلم ، وبها تكتمل الوحدة العقائدية التي يتميز بها الإسلام ، ويتسامى بها على غيره من العقائد .

إن المصير الحضاري للأمة الإسلامية يقع بين اختيارين أساسيين .

فإما أن تخضع للحضارة المادية المعاصرة ، وأن تندمج فيها تدريجياً فكراً وثقافةً وأخلاقاً وسلوكاً ، وهنالك يتراجع الدين إلى هامشية الضمير والحياة ، كما هو الحال في المجتمعات الغربية أو تنحصر الحياة الروحية عند أقليات مستضعفة أو مجهولة ، لا تملك أي نفوذ في الحياة والمصير . ويؤدي هذا الطريق إلى تفتت العالم الإسلامي وصيرورته أجزاء مجزأة وموالية للتكتلات القوية التي تتنازع على السيطرة والنُّفُوذ .

وإما أن تستيقظ من سبات التخلف وغفلة الانحطاط وأن تُمْسِكَ زِمَامَ مصِيرِهَا لتظهر من جديد في مقدمة الحضارة الإنسانية ، ولتقوم برسالتها شاهدة على الناس وداعية إلى الله . وهذا لا يمنعها من التفتح على الحضارات الإنسانية والاقتباس من تجاربها ومكتسباتها العلمية .

ــ إن المادة التي تفقد الحياة تخضع لقانون الموت والجماد .

ــ إن العلم الذي يستغني عن القيم الأخلاقية يؤدي إلى المتاهات القاتلة وإلى الفساد .

ــ إن الحضارة التي لا تُبْنَى على القيم الأخلاقية والروحية حضارة شهوانية مادية تقتل كل ما في الإنسان من الفضائل العقلية والجمالية والدينية التي ترفعه عن مستوى الحيوان .

ــ إن العلم في مَيْدَانَيْهِ النَّظري والتَّطْبيقي مهما تعمق في المعقولات ، ومهما برع في المصنوعات ، لا يضمن سعادة الإنسان إذا غفل عن أبعاد الإنسان الروحية .

ــ إن العلم في المفهوم الإسلامي لا ينفصل عن غاياته الوجودية المرتبطة بتكاليف الإنسان الاستخلافية والدينية إلا إذا أعطي للإنسان العقل ، وعلمه ما لم يعلم ، لإعداده لتحمل الأمانة الكونية التي اختص بها من دون الكائنات .

ــ إن العلم يعني التوسع والتعمق في معرفة الكون والكائنات ، ما

صغُر منها وما كبر ، وفي هذا المعنى ليس للعلم حدود ممنوعة ، ودعاء المسلم في هذا السبيل هو ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه 114/20،] .

ـ إن العلم يعني بناء المجتمع الإنساني الراقي السعيد ليضمن لكل أفراده وسائل المعاش والرفاهية السليمة ويمتد دور العلم في هذا السبيل إلى استكشاف قوانين الطبيعة ، واستخراج ثروات الأرض ، واستخدام طاقاتها المادية والحية .

ـ إن العلم يعني ترقية الإنسان في أبعاده النفسية والعقلية والجمالية والثقافية والروحية .

ـ إن العلم يعني تربية الفرد وتنظيم المجتمع في الأبعاد الأخلاقية التي تصل الإنسان بأسرته ومجتمعه وبيئته الحياتية ليقوم بوظيفة الاستخلاف الأرضيّة بما تفترضه من إصلاح وإحسان وعدالة وتآخٍ وتراحمٍ بين الناس .

ـ إن العلم يعني أخيراً تزكية الإنسان الروحية وارتقاءه في البعد الإيماني الذي يصله بالله ، ويُعِدُّه لحقيقة اليوم الآخر وما يَعِدُ به من سعادة ورضوان. وفي هذا البعد الإيماني للعلم يلتقي عالم الشهادة بعالم الغيب ، ويلتقي نور العلم بنور الهداية الربانية ﴿ **نورٌ على نورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [النور 35/24] .

إن المكونات العقائدية التي يرتكز عليها مستقبل النهضة الإسلامية تلتقي في التوازن الحي بين الإيمان والعلم والعمل ، وقد حاولنا في هذا البحث أن نحدد المعاني والغايات داخل المفهوم الإسلامي للإنسان وللحياة وللكون .

لقد أعَدَّ الله الإنسان وسَوَّاه وهداه ليقوم بالوظيفة الكونية التي خصه بها ، وأمده لذلك الغرض بآيتين مترابطتين آية في نفسه وهي العقل ،

وآيـة في الكون وهي تسخيـر المخلوقـات ، وتلتقي الآيتـان في القـدرة العرفانية والإبداعية والصناعية والفكريـة التي يتميز بهـا الإنسان تكـريماً وتكليفاً وابتلاءً .

ولكن الإنسان في طريقه الراهن لا يزال متعرضاً للهفوات النفسية والشيطانية ، فتارةً يَضِيعُ في الشَّهوات ، وتارة يتيهُ في الظلمات مثل ما تاه الماديون المنكرون لحقيقة الدين في القديم وفي الحديث: ﴿ **وَقَالُوا ما هي إلاّ حَيَاتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ** ﴾ [الجاثية 24/45] . وهكذا يَضِل الإنسان في غياباتِ المادة الصَّمّاء مثل الجَرذان العمياء التي تعيش تحت الثرى ولا تشعر من فوقها ولا من تحتهـا إلا بتراكم التُّـراب ﴿ **وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدّاً فَـأَغْشَيْنَـاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ [يس 9/36] .

أو نـراه يتـوغـل في علوم الكـون والحيـاة ، وتكتشف لـه أسـرار الكائنات وعجائب المخلوقات ولكنه لا يتعدى إلى نور الحقائق الأولى ، وذلك شأن الطبيعيين الماديين مثل الذي يقول : « إن الإنسان يعرف اليوم أنه وحيداً في الكون وأنه ظهر فيه بعـامل الصـدفة والحتميـة ، وأن ذلك الكون لا يبالي بآماله ولا بآلامه ولا حتى بجرائمه » (جاك منود ـ الصدفة والحتمية) .

أُولئك ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَـدَ ناراً فَلَمّـا أضاءَتْ مـا حَوْلَـهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ [البقرة 17/2] .

مهمـا بلغت الاكتشافـات العلميـة والإنجـازات التقنيـة من القـوة والمهارة فإنها لا تُمثّل إلا قدْراً ضئيلاً من المعرفة تحيط بها هالة من التيه ليس لهـا حـدود إلا أن الفكر الإنسـاني المنهـوم بـالمـال وبـالعلم لا يـزال ينتزع في كل حين نصراً ويضيء في كل يوم سراجاً يستكشف به أسرار الكون

ومعجزات الحياة وخبايا الطاقات .

ولكن العقل الإنساني لا يصل إلى الحقيقة إلا بنور الإيمان ولا تكتمل سعادته إلا إذا جمع في نفسه وفي سلوكه وفي ضميره بين الإيمان والعلم والأخلاق .

ـ أما الإيمان فإنه يتجاوز حقيقة الكون وواقع الإنسان ليصل إلى اليقين بالغيبيات .

ـ وأما العلم فإنه يتجاوز القوانين التي تَسِيرُ في نظامها الكائنات الجامدة والحية ، ويمتد إلى معرفة الأصول والغايات والنهايات .

ـ وأما الأخلاق فإنها تجمع بين خلافة الأرض وعبادة الله والسعادة التي يطمح لها كل إنسان لا تتحقق إلا في تكامل البعدين الحياتي والروحي . فمن يثير الحياة الدنيا ويغفل عن المصير الأخروي يجري وراء السراب : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [النور 39/24] .

كما أن الإنسان الذي يرفض البعد الدنيوي ويحسب أنه يتقرب بذلك إلى الله ، فإنه قصَّر في رسالته الاستخلافية وأساء لجود الله وكَرَمِهِ ونِعَمِهِ : ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمنوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ [البلد 90/11-17] .

إن الاجتهاد منهج أساسي في حياة الأمة الإسلامية وهو بمثابة الثورة المستمرة التي تضمن للدين حركيته واستمراريته على مر العصور . ودور الاجتهاد لا يقتصر على القضايا المعاصرة ولكنه يعني كذلك تفحص

الأوضاع ، وتحليل العوامل ، وتحديد الأهداف المنهجية والعملية ، لتقوم النهضة على أسس ثابتة ناجعة ، لا تتصادم فيها معطيات العلم وحقائق الدين ، ولا المادة والروح ، ولا الفرد والمجتمع ، ولا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

وهذا الاجتهاد الذي هو عماد النهضة الدينية والحضارية هو مسؤولية عامة يشترك فيه كل من آمن برسالة العلم ورسالة الدين من فقهاء ومفكرين واقتصاديين وطبيعيين وسياسيين وعاملين ﴿ **وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة 105/9] .

***

الفهرس

المؤلف
الدكتور أحمد عروة

ــ أستاذ في الطب الاجتماعي بجامعة الجزائر .

ــ رئيس قسم (صحة البيئة) بالمعهد الوطني للصحة العمومية .

ولادته ودراسته

ولد سنة 1926 بقرية (مدوكال) بمنطقة (الحضنة) شرق الجزائر ، وانتقل مع أسرته إلى (القليعة) وعمره سبع سنين ، ثم إلى الجزائر العاصمة سنة 1943 م .

كان أبوه محمد الصديق عالماً فقيهاً تخرَّج من جامع الزيتونة بتونس ، وتلقى عنه مبادىء اللغة العربية وأصول الدين ، بينما كان يتابع دراسته بالمدارس الفرنسية .

درَس الطب في جامعة (منبوليي Montpellier) بفرنسا ، وتخرَّج منها بشهادة الدكتوراه في الطب سنة 1955 م .

أحرز شهادةً الدكتوراه في العلوم الطبية بجامعة الجزائر سنة 1982 م ، ونصب أستاذاً بكلية الطب .

نشاطه السياسي والمهني

قبل اندلاع الثورة التحريرية ناضل في منظمة الشباب التابعة لحزب الشعب الجزائري .

شارك في نشاط جمعية الطلبة المسلمين بمنبوليي ، وانتخب رئيساً لها سنة 52 /1953 م .

أثناء الثورة عمل في المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني ، واعتقل من أوائل سنة 1957 م الى أوائل سنة 1959 م .

بعد الاستقلال قام بعدة نشاطات في المنظمات الوطنية :

ــ حزب جبهة التحرير الوطني .

ــ الأمانة الوطنية لقدماء المعتقلين .

ــ المجلس الشعبي الولائي لمدينة الجزائر .

ــ جمعية الكُتّاب الجزائريين .

ــ نقابة الأطباء .

ــ وهو الآن رئيس اللجنة الجزائرية لمكافحة السل ، ونائب رئيس الجمعية الجزائرية لتاريخ الطب .

كان يشتغل في عيادته الخاصة بالجزائرالعاصمة حتى سنة 1971 م ، حيث التحق بالمعهد الوطني للصحة كرئيس لقسم صحة البيئة ومستشار بوزارة الصحة .

إنتاجه الأدبي والعلمي

له اهتمامات مختلفة وتآليف متنوعة نذكر منها :

1) قصة : **«Quand le soleil se lèvera»**

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر 1964 م .

2) دواوين شعرية كتبت أثناء الاعتقال وهي :

« **ذكرى وبشرى من وحي الثورة الجزائرية** » .

دار مكتبة الحياة ، بيروت

Fleur des champs
Panoramas
Les temps modernes
Au delà des barrières

} مطبعة الجيش الوطني الشعبي الجزائر 1967

3) أفكار وتأملات بالفرنسية Pensées entre les lignes

معد للطبع

بحوث إسلامية :

4) «L'Islam à la croisée des chemins»

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر 1969 م .

5) **الإسلام في مفترق الطرق .**

نقله إلى العربية الدكتور عثمان أمين ، دار الشروق القاهرة والشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الطبعة الثانية ، الجزائر 1980 م .

6) «L'Islam et la science»

الطبعة الثانية ـ الجزائر 1982 م .

7) «L'Islam et la morale des sexes»

تحت الطبع ـ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

8) «L'Islam et contraception»

الطبعة الثانية ـ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 م .

9) تأملات حول العلم والدين .

مخطوط معد للطبع .

10) تحديات علمية وآفاق اجتماعية للتقدم العلمي والتكنولوجي .

تحت الطبع ـ دار الشروق ـ القاهرة .

في الوقاية والطب الاجتماعي :

11) «L'homme et son milieu»

الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 م .

Santé et environnement pour une approche systenique de l'hygiène du milieu.

ENAL الجزائر 1985م .

13) مقالات وبحوث مختلفة قدمت في مؤتمرات طبية .

في تاريخ الطب :

14) «Hygiène et prévention chez Ibn Sina»

الطبعة الثانية ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، ، الجزائر 1980م .

15) الوقاية وحفظ الصحة عند ابن سينا .

مجمع اللغة العربية . دمشق 1986 م .

16) بحوث قدمت في مؤتمرات الطب الإسلامي :

ـ فسيولوجيا التنفس عند ابن سينا .

«Physiology of respiration»

الكويت 1981م .

ـ آفاق إسلامية لفلسفة وسياسة الصحة .

«Islamic perspectives on philosophy and politic of health»

الكويت 1982م .

ـ الصحة الاجتماعية في آفاقها الإسلامية .

«Community health in Islamic perspectives»

استانبول 1986 م .

ـ نظرية الوقاية عند ابن سينا وآفاقها الجديدة .

كراتشي 1986 م .

17) بحوث أخرى في تاريخ الطب منها :

ـ آفاق تعليم العلوم الطبية باللغة العربية .

اتحاد الجامعات العربية ، الجزائرية 1984 م .

ـ المناهج العلمية لمعرفة خصائص الأدوية عند ابن سينا .

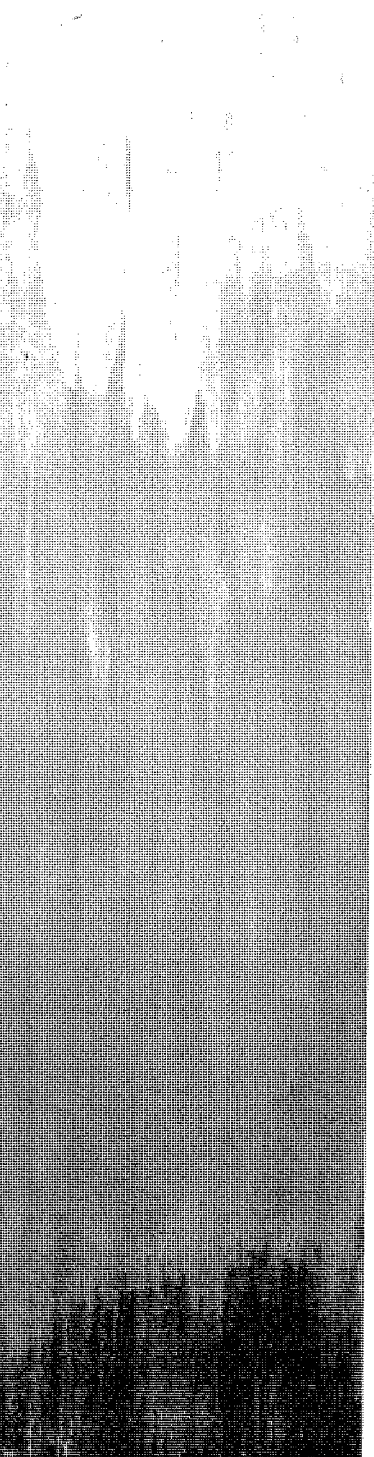
جامعة دمشق : 1980 م .

ـ «La Cosmetologie à L'ère d'Ibn Sina»

الجزائر 1981 م .

ـ «La Medecine Islamique Vocation et Perspectives»

(الطب الإسلامي : سمات وآفاق) قيد الإعداد .



نحن اليـوم « في عصر طغت عليـه الفلسفـات والأفكار التي تنكر » « العلاقـة بين العلم والـدين » « على مستوى الفكر المجرد وعلى مستـوى العمـل والتطبيــق » . « أمــا السبب في اتســاع الفجوة بين الفكر الديني والفكر العلمي فيرجع أساساً إلى التطور الهائل الـذي عرفتـه العلوم الطبيعيـة والتكنولوجيـة » مما أوقع الإنسان في شعور الغربة ، والتساؤل عن معنى الوجود وأهدافه ، ولا سيا بعـد بـدء انتشـار الاعتقـاد بـأن « العلم والإيمـان شيئـان متناقضان » وأن المنهج العقلاني لن يترك « للمعتقدات الـدينيـة ملجأ تأوي إليه » .

وكتـابنـا اليوم محـاولـة علميـة فكريـة تردّ على الفلسفـات المعاصرة المادية والعلمية ، وتبسط موقف الفلسفة الإسلاميـة من العلم والدين ، وتحدّد وظائف العلم .

ومن هنـا سـاغ لنـا وصف هـذا الكتــاب بـأنــه كتــاب (حضاري إسلامي اجتماعي علمي فلسفي) في وقت واحد .

الموزعون الحصريون
دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان ـ بيروت ـ ساقية الجنزير ـ خلف الكارلتون
ص.ب ١٣٦٠٦٤ هاتف ٨٦٠٧٣٩ تلكس FIKR 44316 LE